جمهورية مصر العربية
وزارة التربية والتعليم والتعليم الفنى
الإدارة المركزية لشئون الكتب

# مختارات من أدب الحوار فى الإسلام

## للصف الثالث الثانوى

تأليف

الدكتور / محمد سيد طنطاوى

شيخ الأزهر

العام الدراسى ٢٠١٨ - ٢٠١٩ م

١٤٣٩ / ١٤٤٠ هـ

غير مصرح بتداول هذا الكتاب خارج وزارة التربية والتعليم والتعليم الفنى

بسم الله الرحمن الرحيم

**أعزاءنا طلبة وطالبات الصف الثالث الثانوى.**

إيمانًا منا بأن التربية الدينية لابد أن تترجم من خلال أقوالكم وأفعالكم إلى سلوك قويم وخلق رفيع وتعاون شريف من أجل الحق والخير والجمال .

من أجل ذلك نقدم لكم مختارات من كتاب «أدب الحوار فى الإسلام» لفضيلة الإمام الأكبر الدكتور « محمد سيد طنطاوى » شيخ الأزهر .

راجين من الله - عز وجل - أن يكون مؤثرًا فى معاملاتكم مع غيركم: الآباء والمدرسين والأصدقاء والرؤساء والمرءوسين وفى مجالات الحياة كافة ومع كل أنواع البشر مسلمين وغير مسلمين؛ حتى نثبت للإنسانية جمعاء سمو رسالة الإسلام وأدب المسلمين فى الحوار والحديث، وأن يكون الهدف إظهار سماحة الإسلام ورفعة شأن المسلمين، وتنقية مجتمعنا من كل الشوائب والمظاهر السيئة التى تسللت من خلال بعض الذين تستروا بالدين، والدين منهم برىء، ومن خلال بعض الجهال والحمقى، الذين أساءوا إلى دينهم قبل أن يسيئوا إلى أنفسهم، وتسببوا بجهلهم وحماقتهم فى إظهار المسلمين بصورة مزيفة غير حقيقية، من خلال أفعالهم وأقوالهم .

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1].

ندعو الله - تعالى - أن يوفقنا وإياكم لما فيه خير ديننا وسعادة وطننا وأمنه. إنه نعم المولى ونعم النصير .

(١) سورة التوبة : الآية ٣٢.



طبعة ٢٠١٨ / ٢٠١٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ومن والاه ..

وبعد .. فمن أبرز الأساليب الحكيمة والبليغة التى استعملها القرآن الكريم فى إقامة الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وعلى صدق الرسل الكرام فيما يبلغون عن خالقهم : أسلوب الحوار والجدال والمناقشة من أجل الوصول إلى الحق، عن اقتناع عقلى، وارتياح نفسى، واطمئنان وجدانى ، يجعل صاحبه يعيش حياته وهو ثابت على ما آمن به ثباتًا لا يُنازعه ريب، ولا يخالطه شك ، ولا يحوم حوله وَهْم ...

ولعل من الأدلة على ذلك أن مادة «القول» وما اشتق منها كقال ، ويقول وقل، وقالوا ، ويقولون ، وقولوا ... إلخ .

هذه المادة التى تدل على التحاور والجدال والمناقشة والمراجعة بين الناس فى أمور معينة، قد تكررت فى القرآن الكريم أكثر من ألف وسبعمائة مرة[1].

ويمتاز أسلوب الحوار والجدال فى القرآن الكريم باتساع دائرته ، ووضوح قضاياه، وشموله لما لا يحصى من المسائل ...

فهناك محاورات بين الخالق - عز وجل - وبين مخلوقاته من الرسل الكرام ، ومن الملائكة المقربين ، ومن الشيطان الرجيم ...

وهناك حوار بين الرسل وأقوامهم ، أو بين الأخيار والأشرار ، أو بين الأخيار فيما بينهم، أو بين الأشرار فيما بينهم .

---

(١) راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم من ص ٥٥٤ إلى ص ٥٧٨ للأستاذ محمد فؤاد عبدالباقى - رحمه الله-.

وقد تدور على ألسنة بعض الناس ألفاظ : المناظرة ، والمجادلة ، والمكابرة.

وقد جرى عرف بعض أهل العلم أن يكون المقصود من المناظرة : الوصول إلى الحق والصواب فى الموضوع الذى اختلفت أنظار المناقشين فيه .

وأن يكون المقصود من الجدل أو المجادلة أو المحاورة : إلزام الخصم ، والتغلب عليه ، عن طريق إقامة الحجة ، والإتيان بالدليل الواضح ، والبرهان الساطع .

وأن يكون المقصود من المكابرة : مطلق اللجاجة، أو الشهرة ، أو الانقياد للهوى ، أو مجرد إثبات الوجود ، أو سوى ذلك من التصرفات التى لا تغنى من الحق شيئًا .

وسنرى فى كتابنا هذا – بإذن الله وتوفيقه – أن القرآن الكريم قد استعمل فى إثباته للحق الذى أمر الخالق – عز وجل – عباده باتباعه ، أحكم الأساليب، وأنصع الأدلة ، وأقوى البراهين ، التى تقنع العقول السليمة ، والعواطف الشريفة ، والقلوب الطاهرة ، والتى تقذف بحقها على باطل خصومها فإذا هو زاهق ، والتى تجعل المؤمنين يزدادون إيمانًا على إيمانهم ، وثباتًا على ثباتهم .

كما سنرى أيضًا – بإذن الله وتوفيقه – أن الرسول ﷺ قد تأسى بالقرآن الكريم فى مناقشاته ومحاوراته مع أتباعه أو مع أعدائه ، وأن أصحابه وأتباعه الأخيار قد نهجوا نهجه ، واتبعوا طريقه ، امتثالاً لقوله تعالى :

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾[1].

نسأل الله – تعالى – أن يوفقنا جميعًا لما يحبه ويرضاه ، وأن يرزقنا السداد والإخلاص فى القول والعمل ، إنه أكرم مسئول وأعظم مأمول ..

**شيخ الأزهر**

**د. محمد سيد طنطاوى**

(١) سورة الأحزاب : الآية ٢١.

# الفصل الأول
# اختلاف الناس وأسبابه

## مقدمة

الاختلاف بين الناس فى شئون دينهم وفى شئون دنياهم أمر قديم ، وسيبقى هذا الاختلاف بينهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وهذه الحقيقة قد أكدها القرآن الكريم فى كثير من آياته ، ومن ذلك قوله – تعالى –:

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾(١) .

أى : ولو شاء ربك – أيها الرسول الكريم الحريص على إيمان قومه – أن يجعل الناس جميعًا أمة واحدة مجتمعة على الدين الحق لجعلهم ، فإن مشيئته لا يمنعها مانع ، ولكنه – سبحانه – لم يشأ ذلك ، ليتميز الخبيث من الطيب ، ولا يزال الناس ما بقيت الدنيا مختلفين فى أفكارهم ، واتجاهاتهم ، ومقاصدهم، وآمالهم... إلا الذين أصابتهم رحمة ربك ، فاهتدوا إلى طريق الحق ، فإنهم لم يختلفوا فى أصل من أصول الدين الحنيف ، بل عرفوا طريق الخير فاتبعوه ...

واعلم أن الحكمة الإلهية قد اقتضت أن يكون الناس مختلفين ، وأن رحمة ربك التى وسعت كل شىء ستشملهم ، ما دام اختلافهم من أجل الوصول إلى الحق والصواب . وشبيه بهذه الآية قوله – تعالى – :

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾(٢) .

(١) سورة هود : الآيتان ١١٨ ، ١١٩ .
(٢) سورة الأنعام : الآية ٣٥ .

## أسباب الاختلاف:

والاختلاف بين الناس فى القضايا الدينية أو الدنيوية ، له أسباب متعددة ، وبواعث متنوعة ، منها : الظاهر الجلى ، ومنها الباطن الخفى . ومنها: ما يكون الدافع إليه : معرفة الحقيقة على الوجه الأكمل والأوفق ، وإقامة الأدلة والبراهين على ذلك، وهذا ما يسمى فى عُرف علماء البحث : بالمناظرة أو الجدل. ومنها: ما يكون الدافع إليه سوء النية ، واللجاج ، والغرور ، والتباهى، وهذا ما يسمى : بالمكابرة والمعاندة .

## ومن أسباب الاختلاف بين الناس :

١ **عدم وضوح الرؤية للموضوع من كل جوانبه**. فهذا فهمه من زاوية معينة، وآخر فهمه من زاوية أخرى ، وثالث فهمه من جهة تختلف عن جهتى الأول والثانى ...

وقد قال الحكماء قديمًا : إن الحق لم يصبه الناس من كل وجوهه ، ولم يخطئوه من كل وجوهه ، بل أصاب بعضهم جهة منه ، وأصاب آخرون جهة أخرى.

وقد مثلوا لذلك بجماعة من العميان ، انطلقوا نحو فيل ضخم ، فوضع كل واحد منهم يده على قطعة من جسد هذا الفيل ، ووصفه بالصورة التى تصورها. فقال الذى وضع يده على رجل الفيل:

– إن هذا الحيوان هيئته كالنخلة الطويلة المستديرة. وقال الذى وضع يده على ظهر هذا الفيل :

– إن هيئته أشبه ما تكون بالهضبة العالية ، والأرض المرتفعة ...

وهكذا كل واحد منهم وصف الفيل بالوصف الذى مسته يده ، وهو من هذه الناحية صادق ، ولكنه من ناحية تكذيبه لغيره مخطئ .

وهذا اللون من الاختلاف ربما يعد أيسر ألوانه ، لأنه من المتوقع أن يضمحل[1] أو يزول، بعد معرفة الحقيقة كاملة ، وبعد معرفة المسألة من كل وجوهها ، وبعد أن يحرر موضع النزاع ، ولذا قالوا : إذا عرف موضع النزاع بطل كل خلاف.

(١) يضمحل : يضعف ويتلاشى .

٢ **العكوف على تقليد الآخرين دون دليل أو برهان.** وأنت تقرأ القرآن الكريم، فتجد كثيرًا من آياته ، تنعى[١] على الغافلين والجاهلين والضالين عكوفهم على تقليد سواهم من الآباء أو من الرؤساء ...

ومن الآيات التى وردت فى ذلك قوله – تعالى – :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾[٢].

أى : وإذا قيل لأولئك الذين آثروا[٣] الضلالة على الهدى ، والغىّ على الرشد، اتبعوا ما أنزل الله – تعالى – على رسوله ﷺ من قرآن يهدى إلى الحق ، أعرضوا عن سماع النصيحة ، وقالوا بسفاهة وعناد : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا من عبادة الأصنام ، ومن خضوع للرؤساء .

ويرد القرآن عليهم بأسلوبه الساخر من التقليد والمقلدين فيقول :

﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾

إن التقليد للآباء والرؤساء وغيرهم ، من أشد أسباب الاختلاف بين الناس، لا سيما إذا كان عن عناد ، وجحود للحق ، وانقياد للهوى والشهوات ...

٣ **التعصب للرأى ، والحسد للآخر على ما آتاه الله من فضله، والحرص على المنافع الخاصة ، دون التفات إلى سواها، والانقياد للهوى ، ولتطلعات النفس الأمارة بالسوء ...**

وكل من يدقق النظر فى أكثر الخلافات التى دبت بين البشر قديمًا وحديثًا ، يرى معظمها مرده إلى هذه الأسباب المرذولة ..

(١) تنعى : تعيب . (٢) سورة البقرة : الآية ١٧٠ . (٣) آثروا : فضلوا .

ولقد حكى لنا القرآن فى كثير من آياته، أن بعض المشركين ، كانوا يعرفون أن الرسول ﷺ صادق فيما يبلغه عن ربه، إلا أن العصبية والأحقاد والغرور والعناد، كل ذلك حال بينهم وبين اتِّباعه، وحملهم على أن يخالفوه؛ بغيًا، وظلمًا.

ومن الآيات التى قررت هذه الحقيقة قوله - تعالى - :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (١).

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : «يقول الله -تعالى- مسليًا لنبيه محمد ﷺ ، فى تكذيب قومه له ، ومخالفتهم إياه : قد أحطنا علمًا بتكذيب قومك لك ، وهم لا يتهمونك بالكذب ، ولكنهم يعاندون الحق... كما قال أبو جهل للنبى ﷺ: إنا لا نكذبك يا محمد ، ولكننا نكذب ما جئت به .

وقال - أيضًا - عندما سئل عن النبى ﷺ : والله إنى لأعلم أنه نبى ، ولكن متى كنا لبنى عبد مناف تبعًا ؟!!

وذكروا أن الأخنس بن شريق دخل على أبى جهل بيته فقال له :

- يا أبا الحكم ، وما رأيك فى محمد ﷺ ؟

فقال: تنازعنا نحن وبنو هاشم الشرف : أطعموا فأطعمنا، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا كنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء !! فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه!! ولماذا لا يكون النبى من بنى مخزوم؟

أى من بنى عشيرة أبى جهل!!

وفى رواية أن الأخنس اختلى بأبى جهل فقال له :

(١) سورة الأنعام : الآية ٣٣ .

يـا أبـا الحكم ، أخبرنى عـن محمد أصادق هو أم كاذب ؟ فإنـه ليس ها هنا من قريش غيرى وغيرك يسمع كلامنا .

فقال أبو جهل : ويحك !! والله إن محمدًا لصادق ، وما كـذب محمد قط !! ولكن إذا ذهب بنو هاشم باللواء والسقاية ، والنبوة ، فماذا يبقى لسائر قريش» ؟!![1] .

ومن هذه النقول التى سـاقها الإمام ابن كثير عند تفسـيره لهذه الآية ، يتبين لنا بوضوح أن بعض المشركين – وعلى رأسـهم أبو جهل – لم يكن خلافهم للرسول ﷺ مبعثه سوء ظنهم به ، أو تكذيبهم له ، وإنما كان خلافهم له الدافع إليه العصبية والأحقاد والعناد ...

إن العلم كالمطر ، لاتسـتفيد منه إلا الأرض الطيبة النقية ، وكذلك لا يسـتفيد من العلم إلا أصحاب النفوس الصافية ، والقلوب الواعية ، والأفئدة المستقيمة.

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول فى حديثه الصحيح : «**العلم علمان علم فى القلب فذلك هو العلم النافع ، وعلم على اللسان فذلك حجة الله على ابن آدم**»[2] .

**والخلاصـة: إن كثيرًا من الخلافـات التى تدور بين الناس ، مردها إلى عدم فهم الموضـوع مـن كل جوانبـه، أو إلى التقليد العقيم ، أو إلى التعصـب الذميم، أو إلى الانقيـاد للهـوى والمنافـع الخاصة ، أو إلى الحسـد والبغى والعـدوان ، أو إلى حب الشهرة والتفاخر، أو إلى إثبات الوجود عن طريق الكلام ، أو إلى اختلاف العقول والأفهام ، أو إلى حب الرياسة والسلطان، أو إلى سيطرة الأوهام ، أو غير ذلك من الأسباب التى منها المقبول ومنها المرذول .**

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٢٤٥ طبعة دار الشعب .

(٢) رواه الحافظ أبو بكر الخطيب وابن عبد البر النمرى فى كتاب العلم .

## المناقشة

١ « الاختلاف بين الناس فى شئون دينهم ودنياهم أمر قديم، وسيبقى هذا الاختلاف إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها »

( ا ) هات مفرد «شئون»، وبين المراد بعبارة «إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها».

(ب) متى يكون الاختلاف مقبولا؟ ومتى يكون مرفوضا ؟

(جـ) استدل على العبارة المذكورة بآية من القرآن الكريم.

٢ المناظرة – المكابرة .

اذكر بواعث كل كلمة مما سبق، مع ذكر مثال من واقع الحياة على كلٍّ .

٣ قال الله – تعالى – فى سورة البقرة :

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾(١) .

تعبر الآية الكريمة عن سبب من أسباب الاختلاف بين الناس، فما هو ؟

٤ كيف تفرق بين الأمور الآتية:

التشجيع والتعصب ، الطموح والحسد ؟

٥ قال أبو جهل – لعنه الله – للنبى – صلى الله عليه وسلم – : «إنا لا نكذبك يا محمد ولكننا نكذب ما جئت به » .

ما رأيك فى كلام أبى جهل ؟ وما السبب الذى دفعه إلى ذلك ؟

٦ التعصب المقيت – التقليد الأعمى – الاهتمام بالمنافع الخاصة .

وضح كيفية التغلب على الظواهر السابقة .

(١) سورة البقرة : الآية ١٧٠ .

# الفصل الثانى

# أسس الحوار فى الإسلام

قلنا فيما سبق : إن الاختلاف بين الناس فى شئون دينهم أو دنياهم أمر قديم، وسيبقى قائمًا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وإن لهذا الاختلاف أسبابًا كثيرة ذكرنا جانبًا منها .

ونريد هنا أن نقول : إن شريعة الإسلام ، قد ساقت من المبادئ السامية، والآداب العالية والهدايات الرفيعة ، ما ينظم هذه الخلافات ، والمحاورات ، والمناظرات ، التى تحدث بين الناس ، وما يجعلها تدور فى إطار من المنطق السليم، والفكر القويم والجدال بالتى هى أحسن ، وما يجعل هدفها الوصول إلى الحق والخير ومنفعة الناس فى حدود ما أحله الله – تعالى – لهم .

**ومن هذه المبادئ والآداب التى جاءت بها شريعة الإسلام ، لضبط المجادلات والمناقشات التى تدور بين الناس :**

### ١ التزام الصدق :

**وذلك بأن يكون الحوار بينهم قائمًا على الصدق وتحرى الحقيقة، بعيدًا عن الكذب والسفسطة والأوهام ...**

ولقد ساق القرآن الكريم ألوانًا من المحاورات التى دارت بين الرسل وأقوامهم ، وبين المصلحين والمفسدين ، وعندما تتدبرها ترى الأخيار فيها لا ينطقون إلا بالصدق الذى يدمغ الأكاذيب ، وبالحق الذى يزهق الباطل ...

اقرأ الآيات من ٤٢ إلى ٥٤ من سورة طه لتتعرف الحوار الذى دار بين سيدنا موسى – عليه السلام – وبين فرعون .

وفى سورة الشعراء[١] نرى محاورة تدور بين موسى عليه السلام وبين فرعون، بأسلوب نجد فيه صدق موسى عليه السلام وشجاعته وفطنته .

(١) الآيات من ١٠ : ٤٨ .

وتبدأ هذه المحاورة بأمر من الله – تعالى – لموسى عليه السلام أن يذهب إلى فرعون ليأمره بإخلاص العبادة لله وحده، ويترك الطغيان والظلم، ويبشر الله – تعالى – نبيه موسى بأنه معه بعونه ورعايته ...

استمع إلى الآيات الكريمة وهى تسوق هذه المعانى بأسلوبها البليغ المؤثر

فتقول: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾(١) .

ولبى موسى عليه السلام أمر ربه بعد أن استمع إلى ما وجهه إليه من نصح وإرشاد، وبعد أن بشره بعونه وتأييده، ووصل إلى فرعون، ودارت بينهما تلك المحاورة التى حكاها القرآن الكريم فى قوله – تعالى – :

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الشعراء: ١٨، ١٩] .

أى : قال فرعون لموسى بعد لقائهما وجهًا لوجه، يا موسى : ألم يسبق لك أنك عشت فى منزلنا، ورعيناك وأنت طفل صغير عندما قالت امرأتى :

﴿ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾(٢) وبقيت فى كنفنا وتحت سقفنا عددًا من السنين، وقتلت رجلاً من شيعتى، وأنت من الجاحدين لنعمتى التى أنعمتها عليك فى حال طفولتك. وفى حال صباك ... فهل هذا جزاء إحسانى إليك؟ وتوهم فرعون أنه بهذه الأسئلة قد قطع طريق الإجابة على موسى ..

(١) سورة الشعراء : الآيات من ١٠ : ١٧ .
(٢) سورة القصص : الآية ٩ .

لكن موسى عليه السلام وقد استجاب الله – تعالى – دعاءه وأزال عقدة لسانه ، رد عليه ردًّا صادقًا حكيمًا حكاه القرآن فى قوله :

﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ ﴾(١) .

أى : قال موسى فى جوابه على فرعون : أنا لا أنكر أنى قد تربيت فى بيتك ، ولكن هذه التربية كانت لأسباب خارجة عن قدرتك ، ولا أنكر أنى قد فعلت هذه الفعلة التى تذكرنى بها وهى قتلى لرجل من شيعتك ، ولكن قتلى له كان قبل أن يشرفنى الله – تعالى – بالرسالة ، وفضلاً عن ذلك فأنا أجهل أن هذه الوكزة ستؤدى إلى قتله ، وأنا ما قصدت قتله إنما قصدت تأديبه ومنعه من الظلم لغيره ...

وبعد هذه الفعلة التى فعلتها وأنا لا أقصد من ورائها إلا دفع الظلم عن المظلوم ، توقعت منكم الشر ، ففررت من وجوهكم حين خشيت منكم على نفسى ، فكانت النتيجة أن وهبنى ربى علمًا نافعًا ، وجعلنى من الذين اختارهم – سبحانه – لحمل رسالته .

ثم أضاف موسى عليه السلام إلى هذا الرد الملزم لفرعون ؛ ردًّا آخر أشد إلزامًا وتوبيخًا وتهكمًا ، فقال له : وهل استعبادك لقومى ، وقتلك لرجالهم ، واستبقاؤك لنسائهم ، تعده نعمة أنعمت بها علىّ ؟ لا . إن ما فعلته معى ومع قومى إنما هو نقمة وليس نعمة، فأنا واحد من قومى، يؤلمنى ظلمهم كما يؤلم كل عاقل رشيد .

وبهذا الجواب التوبيخى أفحم موسى عليه السلام فرعون ، وجعله يحول الحديث عن هذه المسألة إلى الحديث عن شىء آخر حكاه القرآن فى قوله – تعالى – :

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(٢) .

(١) سورة الشعراء : الآيات من ٢٠ : ٢٢ .
(٢) سورة الشعراء : الآية ٢٣ .

أى : قال فرعون لموسى بكل غرور وصَلَف ، وما رب العالمين الذى جئت ياموسى لتطالبنى بعبادته ؟ وهنا يرد عليه موسى بكل شجاعة وصراحة وصدق بقوله :

﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾(١) .

أى : قال موسى يا فرعون : ربنا وربك هو خالق السموات والأرض ، وخالق ما بينهما من أجرام وهواء ، ويجب عليكم الإيمان بذلك إيمانًا يقينيًّا لا يحوم حوله شك أو ريب .

وهنا يلتفت فرعون إلى من حوله من حاشيته ليشاركوه التعجب مما قاله موسى، وليصرفهم عن التأثر بما سمعوه منه فيقول لهم :

﴿ ... أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾(٢) . أى : ألا تستمعون إلى هذا القول الغريب الذى يقوله موسى ، والذى لا عهد لنا به ، ولا قبول عندنا له، ولا صبر لنا عليه ..؟

ولكن موسى عليه السلام لم يمهلهم حتى يردوا على فرعون ، بل أكد لهم وحدانية الله – تعالى – وقدرته على كل شىء فقال :

﴿ ... رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (٣) .

أى قال موسى لفرعون وحاشيته : ربنا وربكم هو رب السموات والأرض وما بينهما، وهو ربكم ورب آبائكم الأولين ، فكيف تتركون عبادته ، وتعبدون فرعون وهو مخلوق مثلكم ؟!!

وهنا لم يملك فرعون إلا الرد الدال على إفلاسه وعجزه ، فقال ملتفتا إلى من حوله:

﴿ ... إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾(٤) .

أى : قال فرعون على سبيل السخرية من موسى عليه السلام مخاطبًا كبراء قومه :

(١) سورة الشعراء : الآية ٢٤ .
(٢) سورة الشعراء : الآية ٢٥ .
(٣) سورة الشعراء : الآية ٢٦ .
(٤) سورة الشعراء : الآية ٢٧ .

إن موسى هذا الذى تكلم بالكلام الذى سمعتموه مجنون . فاحذروا أن تصدقوه؛ لأنه يقول كلامًا لم نسمعه من قبل !!

ولكـن موسـى عليه السلام لم يضطـرب من قـول فرعون ، بـل رد عليه بكل صدق وشجاعة وثبات فقال :

﴿... قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾(١) .

أى : قال موسى لفرعون وحاشيته : ربنا وربكم هو رب السموات والأرض وما بينهـما ، وهـو رب آبائكم الأولـين ، وهو رب المشرق الذى هو جهة طلوع الشـمس وطلوع النهار ، ورب المغرب الذى هو جهة غروب الشمس وغروب النهار .

وهكذا انتقل بهم موسـى عليه السلام من دليل إلى دليل على وحدانية الله ـ تعـالى ـ وقدرته ، ومن حجة إلى حجة ، ومن أسـلوب إلى أسـلوب ، لكى لا يترك مجالاً فى عقولهم للتردد فى قبول دعوته .

ولكن فرعون – قد شعر بأن حجة موسى قد ألقمته حجرًا – انتقل من أسلوب المحاور فى شأن رسالة موسى إلى التهديد والوعيد – شأن الطغاة عندما يعجزون عن دفع الحجة بالحجة – فقال لموسى :

﴿... لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾(٢) .

أى : قـال فرعون لموسـى بثـورة وغضب : لئـن اتخذت إلهًا غيرى يا موسـى، ليكـون معبودًا لك من دونى، لأجعلنك واحدًا من جملة المسـجونين فى سـجنى، فهذا شأنى مع كل متمرد على عبادتى ، ومع كل من يخالف أمرى !!

ولكن موسى عليه السلام لم يُخِفْهُ هذا التهديد ، وكيف يخاف من هو على الحق، لقد

(١) سورة الشعراء : الآية ٢٨ .
(٢) سورة الشعراء : الآية ٢٩ .



طبعة ٢٠١٨ / ٢٠١٩م

رد عليه ردًّا حكيمًا قويًّا فقال له :

﴿... أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾(١).

أى : أتجعلنى من المسجونين فى سجنك، حتى ولو جئتك بمعجزة باهرة خارقة للعادة تشهد بصدقى ، وبأنى رسول من رب العالمين؟

ولعل مقصد موسى عليه السلام بهذا الكلام ، أن يجر فرعون مرة أخرى إلى الكلام فى شأن الرسالة التى جاءه من أجلها وهى دعوته إلى إخلاص العبادة لله – تعالى– بعد أن رآه يريد أن يحول مجرى الحديث إلى التهديد والوعيد ، ولذا نجد فرعون لا يملك أمام موسى إلا أن يقول له :

﴿... فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾(٢).

أى : فأت بهذا الشىء المبين – أى : بالمعجزة – التى عندك ، إن كنت من الصادقين فى دعواك أنك رسول من عند الله !!

وهنا كشف موسى عما أيده الله – تعالى – به من معجزات حسية خارقة عبر عنها القرآن فى قوله :

﴿... فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾(٣).

أى : فألقى موسى عليه السلام عصاه على الأرض فإذا هى حية عظيمة ، ونزع يده من جيبه فإذا هى بيضاء بياضًا يخالف لون جسمه عليه السلام، فهى تتلألأ كأنها قطعة من القمر ، ولها شعاع يكاد يغشى الأبصار ، وليس بها ما يشير إلى أن بها سوءًا أو مرضًا .

وهنا أحس فرعون بالرعب يسرى فى أوصاله ، وبأن ألوهيته المزعومة قد

(١) سورة الشعراء : الآية ٣٠ .
(٢) سورة الشعراء : الآية ٣١ .
(٣) سورة الشعراء : الآيتان ٣٢ ، ٣٣ .

أوشكت على الانكشاف ، وبأن معجزة موسى عليه السلام توشك أن تجعل الناس يؤمنون به ، فالتفت إليهم فرعون ، وكأنه يحاول جذبهم إليه ، واستطلاع رأيهم فيما شاهدوه ، وأخذ فى تحريضهم على مقاومة موسى معه ، ويحكى القرآن ذلك بأسلوبه البليغ فيقول :

﴿... قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾[1].

أى : قال فرعون لكبار المحيطين به بعد أن زلزلته معجزة موسى عليه السلام إن هذا الذى أمامكم لساحر بارع فى السحر ، وهو يريد أن يخرجكم من أرضكم التى نشأتم عليها ، فبأى شىء تشيرون على لكى نتغلب عليه ؟

وأشاروا عليه بأن يجمع مهرة السحرة لمبارزة موسى عليه السلام ، واجتمع السحرة، ومنَّاهم فرعون بأنه سيعطيهم العطايا الثمينة السخية إن تغلبوا على موسى ، وجاء يوم المبارزة وكان يوم عيد لهم ، ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾﴾[2] أى : تبتلع بسرعة ما فعلوه من السحر ، ورأى السحرة بأعينهم ومعهم فرعون والحشود من خلفهم ، رأوا ما فعله موسى عليه السلام فأيقنوا أن هذا الذى فعله ليس سحرًا ، بل هو شىء فوق طاقة البشر ، عندئذ لم يتمالك السحرة أنفسهم، بل فعلوا ما حكاه القرآن عنهم فى قوله – تعالى – :

﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾[3].

وهكذا انتهت المحاورة بين موسى وفرعون ، بانتصار الحق على الباطل، والصدق على الكذب ، والخير على الشر ، والعدل على الظلم ، والصراحة والوضوح على الالتواء والخداع ، والشجاعة الحكيمة على الجبن الغبى ...

(١) سورة الشعراء : الآية ٣٤ ، ٣٥ .
(٢) سورة الشعراء : الآية ٤٥ .
(٣) سورة الشعراء : الآيات ٤٦ : ٤٨ .

والـذى يهمنـا إبرازه فى هـذه المحاورة؛ أنـك تقرأ ما رد به موسـى عليه السلام على فرعون فلا ترى فيه إلا الصدق الذى لا يحوم حوله كذب ، وهذا الصدق إنما هو وليد نفس طاهرة، نقية من الغل والحسد ، وصادر من قلب سليم لا يعرف الغش أو الخداع ، ونابع من عقل راجح اسـتطاع بعون الله – تعالى – وتأييده أن يكشف بفطنة وذكاء وحكمة ، عن باطل فرعون وغروره وصلفه ومزاعمه الكاذبة.

إن الحـوار البناء الذى يقصد به الوصول إلى الحق والعدل ومكارم الأخلاق ، هو الذى يكون لحمته وسداه الصدق فى القول ، والعفاف فى السلوك ...

أما الكذَّابون والجهلاء والسفهاء وأصحاب الهوى والمصالح الخاصة ، والذين امتـلأت قلوبهم بالحقد والجبن والغرور ... فهم الذين يجادلون غيرهم بالباطل ، ويكابرون بدون حجة أو دليل ، ولا يقيمون دعاواهم إلا على الكذب والغرور ، والبهتان والزور .. ونعوذ بالله – تعالى – من ذلك .

* * *

### ٢ التزام الموضوعية :

كذلـك مـن الآداب التـى جـاءت بهـا شريعـة الإسـلام ، لتنظيـم الخلافـات والمحـاورات بين الناس ، حتـى تتضح الحقيقة ، ويتوصل المتحـاورون إلى النتيجة المرضيـة: التـزام الموضوعية؛ ونعنى بها عـدم الخروج عن الموضـوع الذى هو محل النزاع أو الخلاف ، فإن آفة كثير من الناس أنهم إذا ناقشوا غيرهم فى موضوع معين ، تعمـدوا أن يسـلكوا مـا يسـمى فى هذه الأيام بخلـط الأوراق ، بحيـث لا يدرى العقلاء فى أى شـىء هم مختلفون مع غيرهـم ، وتتوه الحقيقة فى خضم هذه الفروع التـى لا تـكاد تعرف لها أصلًا. إنك تقرأ القرآن الكريم ، فترى كثيرًا من المجادلات والمحاورات والخلافات التى دارت بين الرسـل – عليهم الصلاة والسـلام – وبين أقوامهم ، وترى أن الرسـل – عليهم الصلاة والسلام – كان جوابهم على مخالفيهم منتزعًا من أقوال هؤلاء المخالفين، دون أى خروج عن موضوع النزاع ...

استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى لنا ما قاله قوم نوح عليه السلام :

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ فيرد عليهم بقوله :

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾(١).

وأعداء الحق جادلوا النبى ﷺ فى كثير من القضايا، وساق القرآن شبهاتهم بأمانة، ثم لقن النبى ﷺ الجواب الذى يقطع دابر هذه الشبهات ، وكان هذا الجواب منتزعًا من واقع كلامهم ، ودون أى خروج عن موضوع الخلاف بينه وبينهم...

واستمع إلى القرآن وهو يحكى جانبًا من هذه الشبهات ، وكيف رد عليها بما يزهقها.. قال – تعالى – :

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾(٢).

تأمل معى – أخى القارئ – هذه الآيات على سبيل المثال ، هل تجد فى الإجابة عن شبهات الضالين ، أى خروج عن موضوع النزاع ؟ كلا ، إنك لا تجد فيها إلا الرد الحاسم ، والقول الفصل ، والجواب الذى يهدم دعاوى المبطلين من أساسها، دون خلط للأوراق ، ودون خروج عن موضوع الخلاف .

**وليت الذين يختلفون مع غيرهم ، يسلكون هذا الطريق الحكيم ، ألا وهو الالتزام بالموضوعية عند خلافهم مع غيرهم فى مسألة من المسائل الدينية أو الدنيوية .**

(١) سورة الأعراف : الآيات من ٦٠ : ٦٢ .
(٢) سورة الأعراف : الآيتان ٢٨ ، ٢٩ .

### ٣ إقامة الحجة بمنطق سليم :

كذلك من المبادئ والآداب التى جاءت بها شريعة الإسلام لقطع الخلاف : إبراز الدليل الناصع[١] ، والبرهان الساطع ، والمنطق السليم ، الذى يلقم المكابر أو المعاند حجرًا ، ويجعله لا يستطيع أن يمضى فى جداله .. استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى لنا ما دار بين إبراهيم عليه السلام وبين الملك الكافر الظالم ، الذى كان يعيش فى عصره ، فيقول - سبحانه - :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾[٢] .

والمعنى : ألم تر - أيها العاقل - قصة ذلك الكافر المغرور الذى جادل إبراهيم - عليه السلام - فى شأن وحدانية الله - تعالى - وشمول قدرته ، بسبب أن الله - تعالى - قد أعطى هذا الكافر الملك ، فلم يستعمله فى الحق والخير ، بل استعمله فى الباطل والجحود والشر ...

لقد قال له إبراهيم عليه السلام وهو يحاوره ويدعوه إلى إخلاص العبادة لله -تعالى- وحده : ربى وربك هو الله الذى ينشئ الحياة ويوجدها ، ويميت الأرواح ويفقدها حياتها ولا يوجد أحد سواه يستطيع أن يفعل ذلك .

فما كان من ذلك الملك الجبار - وهو نمرود بن كنعان - إلا أن قال لإبراهيم على سبيل البطر والغرور : ﴿ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ ﴾ ، أى : قال له : أنا أملك أن أعفو عمن يستحق القتل ، وأقتل من أشاء أن أقتله !!

ولقد كان فى استطاعة إبراهيم عليه السلام أن يبطل قوله، بأن يقول له :

---

(١) الناصع : شديد الوضوح .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٥٨ .

إن مـا يدعيـه ليس من باب الإحياء والإماتة فى شـىء ، ولكنه من باب الظلم والعـدوان، ولكـن إبراهيـم عليه السلام لم يفعـل ذلـك ، بل آثـر ترك المجادلـة فى هذا الشأن، وأتاه بالحجة التى تلقمه حجرا ، ولا مجال معها للمكابرة ، فقال له :

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾ ، فـماذا كانت نتيجـة هـذه الحجة الدامغـة التى قذف بهـا إبراهيم عليه السلام فى وجـه خصمه الغبى المغرور ؟

كانـت نتيجتهـا – كما حكى القـرآن الكريـم – : ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾ أى: غُلِـب وقُهِرَ وتحـير وانقطع عن حجاجه ، واضطرب ولم يسـتطع أن يتكلم ، لأنه فوجئ بما لا يملك دفعه ...

ومـن سـنن الله – تعـالى – فى خلقـه ، أنـه لا يهـدى الظالمـين إلى طريق الحق والرشـاد، بسـبب إصرارهم على الظلم والطغيان ، وإيثارهم طريق الشيطان على طريق الرحمن .

**والعقـلاء دائـمًا عندما تتضح لهـم الحجة ، ويظهر لهم البرهـان ، ويرون الدليل السـاطع عـلى صحـة المسـألة ، يقتنعون بذلـك ، ويعترفـون بالحق ، أما السـفهاء والجهـلاء والمغرورون ، فإنهم يصرون على باطلهم ، ويجحدون الحق عن علم به ، لسوء نواياهم، وضعف عقولهم ، وانطماس[1] بصائرهم ...**

* * *

## ٤ أن يكون الهدف الوصول إلى الحقيقة :

وأيضًـا من المبـادئ والآداب التى جاءت بها شريعة الإسـلام لضبط الخلاف بين النـاس : أن يقصد كل طرف من أطراف الخلاف إظهار الحق والصواب فى الموضوع الذى هو موضع الاختلاف ، حتى ولو كان هذا الإظهار على يد الطرف المخالف .

(١) انطماس: انغلاق وفساد.

وهذا ما نراه واضحًا فى اختلاف الصحابة ، وفى محاوراتهم فى كثير من القضايا. ومن أمثلة ذلك تلك المحاورة التى دارت بين أبى بكر وعمر - رضى الله عنهما - فى مسألة جمع القرآن بعد وفاة النبى ﷺ، فقد توقف أبو بكر فى أول الأمر ، فلما أقنعه عمر برأيه ، ما كان من الصديق رضي الله عنه إلا الموافقة على رأى عمر رضي الله عنه .

واختلفا فى شأن قتال المرتدين الذين امتنعوا عن دفع الزكاة ، وتحاورا فى ذلك، فلما اقتنع عمر برأى أبى بكر فى وجوب قتالهم ، ما كان منه إلا أن رجع عن رأيه إلى رأى أبى بكر .

ولقد ساق الإمام الغزالى فى كتابه «إحياء علوم الدين» جـ ١ ص ٤٤ جملة من الآداب التى يجب أن يتحلى بها المتناظران أو المتحاوران فى مسألة معينة ، فقال: « أن يكون - أى : المتحاوران - فى طلب الحق كناشد الضالة، لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يده أو على يد من يعاونه ، ويرى رفيقه معينًا لا خصمًا ، ويشكره إذا عرّفه الخطأ ، وأظهر له الحق ... فهكذا كانت مشاورات الصحابة ومحاوراتهم، حتى أن امرأة ردت على عمر رضي الله عنه ونبهته إلى الحق وهو فى خطبته على ملأ من الناس فقال : « أصابت امرأة وأخطأ عمر » .

وسأل رجل عليا رضي الله عنه فى مسألة فأجابه . فقال الرجل : ليس كذلك يا أمير المؤمنين ، ولكن كذا وكذا ، فقال على : أصبت أنت ، وأخطأت أنا ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾[1] ....

وقال الإمام الشافعى - رضي الله عنه - : «ما ناظرت أحدًا قط فأحببت أن يخطئ. وما كلمت أحدًا قط وأنا أبالى أن يظهر الله الحق على لسانى أو على لسانه . وما أوردت الحق والحجة على أحد فقبلها منى إلا هبتُه واعتقدت محبته ، ولا كابرنى أحد على الحق إلا سقط من عينى ورفضته. ووددت لو انتفع الناس بعلمى دون أن ينسب إلىَّ منه شىء » .

(١) سورة يوسف : الآية ٧٦ .

ثـم قال الإمـام الغزالى – رحمه الله – : « وهكذا يكـون إنصاف طالب الحق !! ولـو ذكر مثل هذا الآن لأقل فقيه لأنكره واسـتبعده .. فانظر إلى مناظرى زمانك اليوم كيف يسود وجه أحدهم ، إذا اتضح الحق على لسان خصمه ، وكيف يخجل بـه ، وكيـف يجتهد فى مجاحدته بأقصى قدرته ، وكيف يذم من أفحمه طول عمره ، ثم لا يستحى من تشبيه نفسه بالعلماء فى تعاونهم على النظر فى الحق » .

وهكذا يقـول الإمـام الغزالـى المتـوفى سنة ٥٠٥ هـ فى بعض المتناظرين أو المتحاورين فى مسائل معينة من أهل زمانه !! ترى ماذا يقول لو أدرك زماننا هذا، الـذى أصبح كثير من أهله لا يعرفون شـيئًا عـن أدب الحوار ، وإنما همهم التباهى والتفاخـر والتغلب على من يحاورهم بكل أسـلوب مهما بلـغ قبحه وبطلانه ، أما مسألة البحث عن الحقيقة ، فهى آخر شىء يفكرون فيه !!

* * *

## ٥ التواضع والتزام أدب الحديث :

كذلـك مـن الآداب التـى جـاءت بهـا شريعـة الإسـلام لتنظيـم المحـاورات والمجادلات التى تدور بين الناس : التواضع ، وتجنب الغرور ، والتزام الأسلوب المهذب الخالى من كل ما لا يليق ...

انظر إلى سـيدنا سـليمان عليه السلام الـذى أعطاه الله ملكًا لا ينبغـى لأحد من بعده، إنـه يتفقـد جنوده ، فلا يرى الهدهد من بينهم ، فيتوعـده ، ويأتى الهدهد بعد ذلك، فيقول لسـليمان عليه السلام بكل شـجاعة أحطت بما لم تحط به، ويقبل سليمان عليه السلام بكل تواضـع حجـة الهدهد، ويكلفـه بحمل رسـالة إلى تلك الملكة التـى أوتيت من كل شىء، ولها عرش عظيم، فيوصل الرسالة إليها، وتنتهى قصة هذه الملكة بأن تقول :

﴿ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.(١)

(١) سورة النمل: الآية ٤٤.

واستمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى جانبًا من هذه القصة البديعة فيقول :

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ...﴾(١)

وهكذا نرى أن الجندى الصغير فى الأمة التى يظلها العدل والأمان ، لا يمنعه صغره من أن يرد على الحاكم الكبير ، وأن يدافع عن نفسه بكل حرية وشجاعة ، ونرى أن الحاكم الكبير يقابل رده بكل تواضع ، ويفسح له المجال فى أن يدلى بكل حججه ، وأن يضعها موضع التحقيق والاختبار ...

وهكذا الأمم العاقلة الرشيدة لا يهان فيها الصغير ، ولا يُظلَم فيها الكبير ، وأن التحاور بين العقلاء يقوم على التواضع وإعطاء كل ذى حق حقه دون تكبر أو غرور ..

وتأمل تلك التوجيهات السديدة التى يلقنها القرآن الكريم للنبى ﷺ آمرًا إياه أن يقولها لقومه بكل تواضع وشجاعة وحكمة : فيقول :

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾(٢)

ويقول - عز وجل - : ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ

(١) راجع الآيات من ٢٠ إلى ٤٤ من سورة النمل .
(٢) سورة سبأ: الآيات من ٢٤ : ٢٦ .

﴿رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾[1].

إن الحوار أو النقاش أو الجدال الذى يدور بين الناس ، إذا كان يقوم على التواضع والاحترام المتبادل بين الأطراف ، وعلى الأسلوب المهذب الخالى من كل ما لا يليق ، كانت نتائجه طيبة وآثاره حميدة ، لأنه ـ فى الأعم الأغلب – يوصل إلى الحقيقة المرجوة ، وإلى الاتفاق ولو على معظم المسائل التى دار من أجلها الحوار ...

أما الحوار أو النقاش أو الجدال الذى يكون مبعثه الغرور ، والتعالى ، والتفاخر ، والتباهى بالأقوال ، فمن المستبعد أن يأتى بنتيجة توصل إلى حق أو حقيقة أو اتفاق على ما ينفع أو يفيد ، وإنما المتوقع من هذا الحوار الذى لحمته وسداه[2] الغرور والجهل ، أن تتولد عنه الآثام والشرور ، والنتائج السيئة ، والعواقب الوخيمة ...

والعقلاء عندما يرون السفهاء والجهلاء والمتكبرين ، يناقشونهم بالسيف لا بالكلمة، ويحاورونهم بالتهديد والوعيد لا بالمنطق الرشيد ، ويجادلونهم بالباطل المدجج بالسلاح ليدحضوا به الحق ...

العقلاء عندما يرون المحاورة مع المغرورين بهذا الأسلوب السيئ ، كثير منهم يحجم عن المحاورة أو المناقشة ، ويفوض أمره إلى الله تعالى.

* * *

### ٦ إعطاء المعارض حقه فى التعبير :

**كذلك من التوجيهات الحكيمة التى قررتها شريعة الإسلام لتنظيم المناقشات التى تنتشر بين الناس :**

**إفساح المجال أمام المناقش أو المعارض لغيره ، لكى يعبر عن وجهة نظره ، دون مصادرة لقوله ، أو إساءة إلى شخصه ...**

(١) سورة الشورى : الآية ١٥ .

(٢) لُحمته وسدَاه : المقصود باطنه وظاهره .

**وفى الوقت ذاته إعطاء الحرية للجانب الآخر ، لكى يرد على المخالف له ، بأسلوب مهذب ، وبمنطق سليم ، وبأدب جم ، وبحرص تام على تبادل الاحترام فيما بينهما، إذ الخلاف فى الرأى بين العقلاء ، لا يفسد للود قضية ...**

ومن أقوال بعض الفقهاء الحكماء : «رأيى صواب يحتمل الخطأ ، ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب ، ونتعاون فيما اتفقنا عليه ، ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه».

ولقد ساق لنا القرآن الكريم ، صورًا متعددة ، لمحاورات ومجادلات ومعارضات ، تجلى فيها إفساح المجال فى هذا المقام ، حتى لمن جاهر بالمعصية لله – تعالى – ألا وهو إبليس ، الذى فسق عن أمر ربه ، وحسد آدم على ما آتاه الله من فضله ، وتفوه بما يدل على جحوده وعناده وغروره ...

ولقد تكرر الحديث فى القرآن الكريم عن الحوار والجدال فى سور متعددة ، منها قوله – تعالى – فى سورة الحجر[1] : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الحجر: ٢٨].

أى : إنى خالق بشرًا من طين يابس مُصوَّر .

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر: ٢٩]

أى: فإذا سويت خلق هذا البشر، وأفضت عليه ما به حياته، فاسجدوا له سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة فإنها لا تكون إلا للخالق وحده. ثم بين – سبحانه– ما كان من الملائكة بعد ذلك فقال:

﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٣٠، ٣١]

أى : إلا إبليس فإنه عصى أمر خالقه – عز وجل – وامتنع عن السجود لآدم، غرورًا أو حسدًا وعنادًا واستخفافًا بأمر الله تعالى!!

(١) الآيات من : ٢٨ : ٤٢ .

وهنا يحكى لنا القرآن الكريم ما دار بين الخالق – عز وجل – وبين إبليس من محاورات وأقوال فيقول : ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الحجر: ٣٢] أى: قال الله – تعالى وهو العليم بكل شىء – لإبليس: أىُّ سبب حملك على مخالفة أمرى، وجعلك تمتنع عن السجود لمن أمرتك بالسجود له؟!!

فماذا كان رد إبليس على خالقه – عز وجل – ؟ كان رده أن قال :

﴿ .. لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴾ [الحجر:٣٣]

أى: قال إبليس لله – تعالى – لا يليق بشأنى ومنزلتى أن أسجد لهذا البشر الذى خلقته من تلك المادة. وفى آية أخرى: أنه قال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ أى: أنا خير من آدم. ﴿ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾[1].

وهنا أصدر – الخالق – عز وجل – حكمه العادل على إبليس :

﴿ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ ﴾.
[الحجر:٣٤، ٣٥]

أى قال الله – تعالى – لإبليس بعد أن جاهر بالمعصية وبالإصرار عليها : اخرج من جنتى أو من سمائى فإنك مطرود، وإن عليك اللعنة والإبعاد من رحمتى إلى يوم الحساب والجزاء ، فإذا ما جاء هذا اليوم استمرت عليك هذه اللعنة ، وحل بك العذاب الذى تستحقه بسبب حسدك وعصيانك ..

ولكن هل تَقبَّل إبليس هذا الحكم بالسكوت والرضا ؟ وهل منعه الله – تعالى – من الكلام بعد أن أصدر – سبحانه – عقوبته العادلة عليه ؟

إن المتدبر فى القرآن الكريم فى آيات متعددة يرى أن إبليس لم يسكت ، وأن الله – تعالى – قد أفسح له المجال لكى يتكلم ، وفى ذلك إشارة إلى واسع حلمه – تعالى – وإلى أن من شأن العقلاء أن يفسحوا صدورهم لخصومهم لإبداء وجهة نظرهم ، ثم بعد ذلك يكون الرد عليهم .

(١) سورة الأعراف : الآية ١٢ .

استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى ما طلبه إبليس من ربه ، وما رد الله عليه فيقول : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾(١) .

أى : قال إبليس – على سبيل التذلل – لخالقه: يا رب ما دمت قد أخرجتنى من جنتك ومن سمائك، وجعلتنى مرجومًا ملعونًا إلى يوم الدين ، فأخر موتى إلى يوم أن يبعث آدم وذريته للحساب .

وأجابه الله – تعالى – إلى طلبه ، ويحكى القرآن ذلك فيقول :

﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الحجر: ٣٧، ٣٨].

أى : قال الله – تعالى – لإبليس : إنك من الذين أخرت موتهم إلى يوم القيامة الذى استأثرت بعلم وقته .

ومرة أخرى نقول : هل اكتفى إبليس بكل ما قاله سابقًا مما حكاه القرآن عنه؟ وهل قفل الخالق – عز وجل – الباب فى وجهه ومنعه من أن ينطق بأية كلمة بعد ذلك ؟

الجواب – كما حكى القرآن الكريم – أن إبليس لم يسكت بل ظل فى لجاجه ومكابرته ، ومع ذلك لم يمنعه الله – تعالى – من الكلام ، فقد قال إبليس مهددًا ومتوعدًا آدم وذريته ﴿ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحجر : ٣٩، ٤٠]

فبماذا رد الله – تعالى – عليه ؟ لقد رد – سبحانه – عليه بهذا الرد الحاسم والعادل فقال : ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الحجر: ٤١، ٤٢] .

* * *

(١) سورة ص : الآية ٧٩ .

## والآن لنا أن نسألك أيها القارئ الكريم :

هـل رأيت إفسـاحا للمجال أمـام المعارض أو المناقش أو المحـاور لغيره كهذا اللون من إرخاء العنان، ومن تركه يعبر عن رأيه ، ويدلى بوجهة نظره ؟

لقد حكى لنا القرآن الكريم أن الله – تعالى – ترك إبليس اللعين يقول ما يقول فى حق آدم وذريته ، ولكنه – سبحانه – فى الوقت ذاته رد عليه بما يخرسه ، وحكم عليه بحكمه العادل ، وحذر آدم وذريته من كيده وعدوانه ، وهذا درس من أدب الحوار جدير بأن يسير عليه العقلاء ، فإنه فى النهاية لا يصح إلا الصحيح .

﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾[1].

## ٧ احترام الرأى الصائب :

من أسمى وأشرف ألوان أدب الحوار فى الإسلام: احترام رأى العقلاء، الذين ينطقون بالكلمة الطيبة، وبالحجة المقنعة، ويسـلكون السـلوك الحميد فى أعمالهم، ويَعِفُّون عن كل ما يتنافى مع مكارم الأخلاق، مما يشهد باستنارة بصيرتهم، ونقاء نفوسـهم، وطهارة قلوبهم، وعلو همتهم، وصفاء معدنهم، وفى الحديث الشريف: «الناس معادن. خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا»[2].

وهذا الاحترام لرأى العقلاء المخلصين، ينبغى أن يتحلى به كل إنسـان سـليم الوجـدان، حتـى ولـو خالفـوه فى رأيـه، لأن هذه المخالفـة من العقـلاء لغيرهم، لم تصـدر منهم عن سـوء نيـة، أو عن خبث طويـة، أو عن منفعة شـخصية، وإنما صدرت منهم هذه المخالفة فى الرأى لغيرهم، من أجل الوصول إلى الحقيقة، التى يعود خيرها إلى الأفراد والجماعات.

* * *

(١) سورة الرعد : الآية ١٧ .

(٢) رواه البخارى.

ولقد ساق لنا القرآن الكريم صورًا متعددة ، لهؤلاء الأصفياء الأنقياء ، الذين يحترمون رأى غيرهم من العقلاء ، حتى ولو كان هذا الرأى يخالف رأيهم ... ومن هذه الصور المشرقة ، ما قصه القرآن الكريم علينا ، فى قوله – تعالى –:

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩﴾(١)

وسليمان هو ابن داود – عليهما السلام – ، وكلاهما من أنبياء الله – تعالى – ، وينتهى نسبهما إلى يعقوب – عليه السلام – ، وكانت وفاتهما قبل ميلاد المسيح عيسى ابن مريم – عليه السلام – بألف سنة تقريبًا. وقد جمع الله – تعالى – لداود وسليمان بين الملك والنبوة .

وقد ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهاتين الآيتين ، روايات ملخصها : أن رجلين دخلا على داود – عليه السلام –، أحدهما صاحب زرع ، والآخر صاحب غنم . فقال صاحب الزرع لداود – عليه السلام – : يانبى الله ، إن غنم هذا قد نفشت فى زرعى فأكلته عن آخره ، وإنى أريد حكمك وقضاءك ، فأصدر داود حكمه فى هذه القضية، بأن يأخذ صاحب الزرع غنم خصمه ، فى مقابل إتلافها لزرعه(٢).

وعند خروجهما التقيا بسليمان – عليه السلام– فأخبراه بحكم أبيه . فقال لهما : لو كان الأمر بيدى لحكمت بغير ذلك . ثم دخل بهما على أبيه فقال له: يانبى الله ، هل قضيت لهذين بكذا وكذا .

فقال له: نعم .

فقال سليمان: لو كان الأمر بيدى لقضيت بغير هذا !

فقال له أبوه داود – عليهما السلام – : بماذا تقضى فى هذه المسألة ياسليمان؟

(١) سورة الأنبياء : الآيتان ٧٨ ، ٧٩.

(٢) والحرث : الزرع . ونفشت: من النَّفش ، وهو الرعى بالليل خاصة . يقال : نفشت الإبل والغنم فى الزرع أو النبات ، إذا أكلته ليلًا دون أن يكون معها من يرعاها أو يحرسها .

فقال : أقضى بأن أعطى الغنم لصاحب الزرع لينتفع بها ، وآمر صاحب الغنم أن يعيد زراعة ما أفسدته غنمه، فإذا ما عاد الزرع كما كان ، سلَّمتُه لصاحبه، وسلّمتُ الغنم لصاحبها .

فقال داود: «القضاء هو ما قضيت به يا سليمان».

فأنت ترى أن على رأس الدروس النافعة التى تؤخذ من هذه القصة : أن الإنسان صاحب النفس الزكية والفؤاد المستنير، يحترم رأى غيره من العقلاء ، بل ويتنازل عن رأيه ليأخذ برأى هؤلاء العقلاء ، متى ظهر له أن الحق إلى جانبهم ، وأن الحكم الصواب هو الأقرب إلى اتجاههم .

وهذا ما فعله داود مع ابنه سليمان ، فقد رجع عن حكمه إلى حكم ابنه ، بعد أن اطمأن إلى سلامة حكم ابنه ، وإلى أنه الأقرب إلى الصواب .

وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة فى قوله – تعالى – :

﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ﴾ أى: ففهمنا سليمان الحكم الأنسب والأوفق فى هذه القضية، وذلك لأن داود – عليه السلام – قد اتجه فى حكمه إلى مجرد التعويض لصاحب الحرث، وهذا عدل فحسب. أما حكم سليمان فقد تضمن مع العدل البناء والتعمير، وجعل العدل دافعًا إلى البناء والتعمير ، وهذا هو العدل الحى الإيجابى، فى صورته البانية الدافعة، وهو فتح من الله وإلهام يهبه لمن يشاء من عباده .

ولكى لا يظن أحد أن داود قد أخطأ فى حكمه ، قال – سبحانه – :

﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ أى: وكلا من داود وسليمان ، قد أعطيناه من عندنا نبوة وإصابة فى القول والعمل ، وفقها فى الدين ، وفهمًا سليمًا للأمور؛ فالجملة الكريمة تمثل أسمى ألوان الاحتراس ، والثناء على هذين النبيين الكريمين.

* * *

فإذا ما اتجهنا إلى سيرة الصحابة ، الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ، والذين تأسوا برسولهم ﷺ فى مكارم الأخلاق ، وفى أدب الحوار والجدال ، وفى كل شأن من شئونه ﷺ رأينا منهم ما يشهد بأن الواحد منهم ، كان يحترم رأى غيره ، وينزل عليه متى اطمأن إلى صوابه ، ومهما بلغت المناقشات والمحاورات حول الشىء الذى هو محل النقاش والحوار .

وتأمل معى تلك القصة التى تتعلق بجمع القرآن الكريم فى عهد أبى بكر الصديق، والتى ذكرها الإمام البخارى فى صحيحه ، عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: «أرسل إلىّ أبو بكر عقب مقتل أهل اليمامة – أى : عقب استشهاد القُرَّاء السبعين فى واقعة اليمامة – فإذا عمر بن الخطاب عنده. فقال أبو بكر : يازيد ، إن عمر أتانى فقال : إن القتل قد استحر – أى : اشتد – يوم اليمامة فى قراء القرآن – أى: فى حُفَّاظ القرآن–، وإنى أخشى أن يستحر القتل فى القراء فى مواطن أخرى فيذهب كثير من القرآن ، وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن !!

قال أبو بكر : فقلت لعمر : كيف نفعل ما لم يفعله رسول الله ﷺ؟

فقال عمر : هذا والله خير . ولم يزل عمر يراجعنى وأراجعه – فى هذه المسألة – حتى شرح الله صدرى لذلك ، ورأيت فى ذلك الذى رآه عمر .

ثم قال أبو بكر : يا زيد ، إنك رجل شاب عاقل ، لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه ...

فقلت : كيف تفعلون شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ؟

قال أبو بكر : «هو والله خير ، ولم يزل يراجعنى أبو بكر ، حتى شرح الله صدرى ، للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر – رضى الله عنهما – ...»

فهذا الحديث الصحيح يدل على أن محاورات ومراجعات دارت بين أبى بكر وعمر – رضى الله عنهما – حول مسألة جمع القرآن فى صحف أو مصحف فى أعقاب استشهاد عدد كبير من حفاظ القرآن فى معركة اليمامة التى كانت فى خلافة أبى بكر بين المسلمين ، وبين مسيلمة الكذاب وأتباعه ، وأن أبا بكر فى أول الأمر عارض عمر فى هذه المسألة ، ولكنه بعد محاورات ومفاوضات بينهما، اقتنع أبو بكر بصواب رأى عمر ، وأيقن أن هذا الجمع للقرآن الذى أشار به عمر ، ما هو إلا وسيلة من أعظم الوسائل النافعة لحفظ القرآن الكريم ، وأنه من القواعد التى وضعها الرسول ﷺ لزيادة حفظ القرآن عن طريق إباحة كتابته، واتخاذ كُتَّاب الوحى لذلك ، ثم بعد أن اقتنع بما رآه عمر ، كلف زيد بن ثابت بتنفيذها ...

ومن هذه القصة نتعلم – من بين ما نتعلم – كيف يكون أدب الحوار ، وكيف سيكون احترام الرأى الآخر ، وكيف أن أصحاب العقول السليمة ، والنفوس الزكية ، والعواطف الشريفة – مهما سمت منزلتهم – لا يستنكفون الرجوع عن رأيهم إلى رأى مخالفيهم متى اقتنعوا بذلك . وإذا كان الصِّديق قد نزل على رأى عمر ، فى هذه المسألة ، فإن عمر قد نزل على رأى أبى بكر – بعد محاورات ومناقشات – فى مسائل كثيرة منها : قتال أبى بكر للمرتدين الذين فرَّقوا بين الصلاة وبين الزكاة ، فقد كان عمر فى أول الأمر يرى عدم قتالهم ، فلما أقنعه أبو بكر بوجوب قتالهم ، رجع إلى رأى أبى بكر ، – فرضى الله عنهما – .

* * *

وتسألنى فى النهاية : إذا أنا أخذت بأدب الحوار الذى علمنى إياه دين الإسلام، فاحترمت فكر غيرى من العقلاء ، وأنا أحاورهم وأناقشهم فى مسألة ما ، ونزلت على رأيهم حتى ولو خالف رأيى ، فماذا أفعل فى حوارى مع غيرهم ممن يصرون على رأيهم ولو كان فاسدًا، وممن استحوذ عليهم الغرور والتطاول والجهل فأنساهم كل ألوان أدب الحوار ؟

والجواب : إن خير طريق مع هؤلاء المصرِّين على باطلهم ، الناكصين على أعقابهم عن سماع النصيحة مع تكرارها أن تعرض عنهم ، وأن تفوض أمرك وأمرهم إلى الله – تعالى – .

وهذا ما أرشد الله – تعالى – رسوله محمدًا ﷺ إليه فى آيات كثيرة ، منها قوله – سبحانه – : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾(١)

وقوله –تعالى–: ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾(٢)

وقوله – عز وجل–: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ

(١) سورة النساء : الآية ٨١ .
(٢) سورة الزخرف : الآية ٨٩ .

رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾(١).

* * *

## ٨ تحديد مسألة الحوار :

كذلك من أدب الحوار فى الإسلام : عدم التعميم فى الأحكام ، والاحتراس فى الأقوال ، وتحديد المسائل والقضايا تحديدًا دقيقًا ، توضع فيه الألفاظ فى مواضعها السليمة ، وتقرر فيه الأمور تقريرًا لحمته وسداه ، الصدق والعدل ، وتوزن فيه الأفعال بميزان القسط ، الذى لا يَظلِم أهل التقوى والعفاف والاستقامة ، ولا يجامل الذين أطاعوا أهواءهم ، وعموا وصموا عن الطريق القويم.

ولقد علمتنا تجارب الحياة ، أنه ما من أمة يكثر فيها عدد العقلاء الأمناء ، الذين يبنون حياتهم على التنظيم السليم ، والتحديد الدقيق ، لأقوالهم ، وأفعالهم، وأحكامهم ، إلا وظفرت بما تبتغيه من رقى ونجاح ، واستقرار وصلاح، لأن سنة الله – تعالى – التى لا تتبدل ، قد اقتضت أنه – سبحانه – لا يضيع أجر من أحسن عملًا.

ومامن أمة يفشو فيها التعميم فى الأحكام بلا بينة ، ويكثر فيها عدد السفهاء الذين إذا ناقشوا أو حاوروا غيرهم فى مسألة من المسائل ، أو فى قضية من القضايا، وسلكوا فى محاوراتهم طريق الكذب، وإلقاء القول على عواهنه(٢) دون دليل أو برهان...

أقول : ما من أمة يكثر فيها هذا النوع من الناس، إلا وكان أمرها فرطًا، لأن سنة الله – تعالى – أيضًا – قد اقتضت أنه. لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

* * *

(١) سورة الشورى : الآية ١٥ .

(٢) ألقى القول على عواهنه : أى تكلم بها حضره ولم يبال أصاب أم أخطأ.

والـذى يتدبـر القـرآن الكريـم بقلـب منيـب ، وعقل سـليم ، يـرى بوضوح وإشراق، كيـف أن القـرآن الكريـم ، قد وضـع كل لفظ فى المعنى الذى يناسـبه ، وحدد أحكامه تحـديدًا دقيقًا ، لا مجال معه للالتبـاس أو الخفـاء أو الاضطـراب

﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾(١) .

يراه قد قرر ما قرر من أمر أو نهى بأسـلوب من أسـمى مميزاته : الاحتراس فى التعبير، بحيث لا تعمم فيه الأحكام إلا إذا اقتضى المقام ذلك .

ومـن الأدلـة على ما نقـول : أن لفظ «إلا» الذى يدل على الاسـتثناء والتحديد والتقييد ، قد تكرر فى الآيات القرآنية عشرات المرات .

وهـذا الاسـتثناء أو التحديـد أو التقييـد للأحـكام ، نـراه تـارة فى العقائـد ، وتـارة فى المعاملات وتارة فى غير ذلك من التشريعات المتنوعة التى زخرت بها آيات القرآن الكريم .

* * *

ففـى مجال العقائد – على سـبيل المثال ـ نراه يأمر بوجـوب إخلاص العبادة لله الواحد القهار ، وينفى الإيمان عن كل من نطق بكلمة الكفر ، ولكنه يسـتثنى من ذلك من نطق بها مكرها، فيقول :

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾(٢).

وقـد ذكـر المفسرون فى سـبب نزول هـذه الآيـة ، أن عمار بن يـاسر – رضى الله عنهـما – عذبـه المشركون عذابًا شـديدًا ، وأنذروه بأنهم لن يكفـوا عن تعذيبه حتى ينطـق الكفر فأعطاهم بلسـانه مـا أكرهوه عليه ، ثم ذهـب إلى النبى ﷺ وأخبره بما حدث له، فقال له ﷺ: «كيف تجد قلبك» ؟ فقال : «مطمئن بالإيمان». فقال له ﷺ: «**إن عادوا فعد**» .

* * *

(١) سورة الأنفال : الآية ٤٢ .

(٢) سورة النحل : الآية ١٠٦ .

وهذا التحديد الدقيق فى الأحكام ، والاحتراس فى الأقوال والأفعال ، لم يأت فى القرآن الكريم بلفظ «إلا» فقط ، الذى يدل على الاستثناء والتقييد ، وإنما جاء بألفاظ أخرى ، وبأساليب أخرى ، منها : لفظ «بعض» ، كما فى قوله – تعالى – :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ...﴾(١) .

فالقرآن الكريم لم يأمر المؤمنين بالابتعاد عن جميع ألوان الظنون ، وإنما أمرهم باجتناب الظن السيىء بأهل الخير والفلاح دون دليل أو برهان ، فأنت ترى أن القرآن قد حدد الظن المنهى عنه تحديدًا دقيقًا ، ولم يعمم الحكم بأن يقول – مثلا – اجتنبوا جميع الظنون ، وذلك لأن الظن منه ما يكون واجبًا ، كالظن الذى يقصد من ورائه الوصول إلى الحقيقة ، ومنه ما يكون مباحًا كأن تتوقع شرًّا فتحذره ، أما الظن الذى عبر عنه القرآن بقوله : ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ فهو الظن السيىء بالناس دون بينة أو دليل ، وهو الذى عناه الحديث النبوى الصحيح: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث**».

ومنها : لفظ «غير» كما فى قوله – تعالى – : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾(٢) .

ففى هاتين الآيتين نداء للمؤمنين أمرهم – سبحانه – بالأكل من الطيبات ، ونهاهم عن تناول الخبائث، كالميتة ، والدم المسفوح ، ولحم الخنزير ، وما قصد بذبحه التقرب لغير الله – تعالى – .

وقوله – سبحانه –: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ استثناء

(١) سورة الحجرات : الآية ١٢ .
(٢) سورة البقرة : الآيتان ١٧٢ ، ١٧٣ .

قصد به بيان حالات الضرورة التى يباح للإنسان فيها أن يأكل من تلك المحرمات، واحتراس فى إصدار الأحكام بصورة دقيقة ومحددة . أى : كلوا من الطيبات ، واجتنبوا المحرمات، غير أن من ألجأته الضرورة إلى أكل شىء من هذه المحرمات، حالة كونه غير طالب للمحرم وهو يجد سواه ، أو غير متجاوز ما يسد به الجوع ويحفظ الحياة ، فلا إثم عليه فى أكله من هذه المحرمات ، لأن الله – تعالى – قال : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ سورة الحج الآية الأخيرة .

* * *

كذلك من الألفاظ التى استعملها القرآن الكريم لمنع التعميم فى الأحكام ، ووجوب الاحتراس فى الأقوال والأعمال : لفظ «القلة» ولفظ «الكثرة» وما اشتق منهما ، وقد تكرر ذلك فى القرآن الكريم فى عشرات الآيات القرآنية .

ومن ذلك قوله – تعالى – : ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾(١) وقوله –سبحانه– : ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾(٢) . وقوله –عزوجل– : ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾(٣) وقوله – سبحانه –: ﴿فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾(٤) وقوله – تعالى – : ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾(٥) .

فأنت ترى أن الله – تعالى – لم ينف الشكر والإيمان والجهاد والصلاح عن جميع الناس ، وإنما أسنده إلى عدد قليل منهم ، وهم المؤمنون الصادقون ، والشاكرون والمجاهدون المخلصون .

وأما لفظ «الكثرة» وما اشتق منه ، فقد ورد فى القرآن فى أكثر من مائة آية ، ومن ذلك قوله – تعالى –: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾(٦)

(١) سورة سبأ : الآية ١٣ .
(٢) سورة هود : الآية ٤٠ .
(٣) سورة البقرة : الآية ٢٤٩ .
(٤) سورة البقرة: الآية ٢٤٩
(٥) سورة ص : الآية ٢٤ .
(٦) سورة النساء : الآية ١١٤ .

وقوله – سبحانه – : ﴿ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾[1].
وقوله – عز وجل – : ﴿ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[2].
وقوله – سبحانه – : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[3]
وقوله – تعالى –: ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾[4]
وقوله – سبحانه – : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ ﴾[5].

ففى هذه الآيات الكريمة وما يشبهها، تحديد دقيق للأحكام ، ووضع للألفاظ فى معانيها الصحيحة .

* * *

**وهكذا نرى بوضوح ، كيف أن القرآن الكريم قد ابتعد فى توجيهاته عن التعميم فى الأحكام ، وإنما وضع كل لفظ فى المعنى الذى يليق به ، وأعطى كل مسألة الحكم الذى يناسبها بكل دقة وموضوعية ، ولعل فى ذلك درسًا حكيمًا للذين يلقون القول على عواهنه ، ويطلقون الأحكام فى محاوراتهم ومجادلاتهم مع غيرهم ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .**

* * *

## ٩ أن يقوم الحوار على الحقائق الثابتة :

ومن أوجب الواجبات ، لكى يكون الحوار بين الناس مفيدًا ونافعًا ، وترجى من ورائه النتائج الطيبة ، والعواقب الحميدة : أن يقوم على الحقائق الثابتة ، لا على الإشاعات الكاذبة ، وأن يبنى على المعلومات الصحيحة ، لا على الأخبار المضطربة.

وذلك لأن الأحكام التى مصدرها الأراجيف[6] التى لا أساس لها من الصحة ، تكون أحكامًا فاسدة ، لأنها لا سند لها من العقل الصحيح ، أو النقل السليم، ومن المعروف عند العقلاء، أن ما بنى على الفاسد فهو فاسد،

(١) سورة المائدة : الآية ٦٦ . (٢) سورة الحديد: الآية ٢٦ . (٣) سورة الأنعام : الآية ١١٦ .
( ٤ ) سورة يوسف : الآية ١٠٣ ( ٥ ) سورة الشعراء : الآية ٨ ، ١٠٣، ١٢١، ١٣٩، ١٥٨، ١٧٤، ١٩٠ .
( ٦ ) الأراجيف : الأخبار السيئة والفتن .

ومابنى على الصحيح فهو صحيح. ولقد مدح القرآن الكريم أولئك الأصفياء الأنقياء، الذين ينطقون بالكلام الطيب، وبالقول الصادق، فقال:

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾(١).

ومن التوجيهات الحكيمة، والآداب السديدة، التى ربى عليها النبى ﷺ أتباعه، أنه نهاهم عن إشاعة الكلام السيئ فيما بينهم، وأمرهم بنشر القول الحسن، فقال: «لاتبلغونى عن أصحابى شيئًا أكرهه، فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر».

* * *

ومن الآيات القرآنية التى أمرت المؤمنين بأن يتثبتوا من صحة ما يقولونه وما يسمعونه، قوله - تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾(٢).

* * *

ثم أرشد - سبحانه - المؤمنين بعد ذلك إلى جانب من نعمه عليهم، ومن رحمته بهم، فقال:

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨﴾(٣).

* * *

ولقد كان من عادة الرسول ﷺ أن يتثبت من صحة الأخبار التى ترد على مسامعه، وأن يتأنى فى الحكم عليها، وربى أصحابه على ذلك.

(١) سورة الحج: الآية ٢٤.
(٢) سورة الحجرات: الآية ٦.
(٣) سورة الحجرات: الآيتان ٧، ٨.

فقد حدث فى غزوة بنى المصطلق - وكانت فى السنة الخامسة من الهجرة - أن غلامًا لعمر بن الخطاب ، تزاحم على ماء مع رجل من الأنصار ، فقال الأنصارى : يامعشر الأنصار ، وقال الغلام : يا معشر المهاجرين . فلما سمع بذلك زعيم المنافقين عبد الله بن أبَى ابن سلول ، قال - وعنده رهط من الأنصار - : قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا . والله ما مثلنا وجلابيب قريش - يعنى المهاجرين - إلا كما قال القائل : «سمن كلبك يأكلك» . والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .

وسمع ذلك زيد بن أرقم وكان فى المجلس ، فغضب غضبًا شديدًا ، وذهب إلى النبى ﷺ فأخبره بما سمع ، ولكنه ﷺ تريث فى الأمر ، وأمر أصحابه بالرحيل حتى لا يشغلوا بما كان من رأس المنافقين عبد الله بن أبىّ ابن سلول .

ونزلت سورة «المنافقون» وفيها قول الله - تعالى - :

﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾(١) .

وروى أن الرسول ﷺ بعد أن نزلت هذه السورة ، استدعى زيد بن الأرقم رضي الله عنه فقرأها عليه ، ثم قال : «هذا الذى أوفى الله بأذنه» . وفى رواية أنه ﷺ قال له : «إن الله قد صدقك» .

وقد ترتب على هذا التريث فى الأمر ، والحكمة فى التصرف ، أن أحد أبناء عبد الله بن أبى وكان من خيار الصحابة - وكان اسمه عبد الله - أيضًا، عندما بلغه ما حدث من أبيه ، وقف على باب المدينة ، واستل سيفه ، فلما جاء أبوه وأراد أن يدخل المدينة منعه من دخولها ، وقال له : والله لن تدخلها حتى يأذن رسول الله ﷺ لك ، فإنه العزيز وأنت الذليل . وعندما بلغ النبى ﷺ ذلك أذن لزعيم المنافقين فى الدخول. وهكذا التريث فى الأحكام ، والتصرف الحكيم إزاء الأحداث، يؤدى إلى علو كلمة الحق، وزهوق كلمة الباطل .

* * *

(١) سورة المنافقون : الآية ٨ .

إن الذين يتسلحون بسلاح كلمة الحق فى حوارهم مع غيرهم ، لابد وأن يظفروا من كل عاقل بالاحترام والتقدير ، أما الذين يتسلحون بالحجة الداحضة[١]، وبالإشاعات الكاذبة ، وبالأراجيف الباطلة ، فى مناقشاتهم ومحاوراتهم مع غيرهم ، فلن يصلوا إلا إلى السخرية منهم ، والإعراض عنهم ، لأن الحق أبلج[٢]، والباطل لجلج[٣] .

ومن الأدلة على ذلك ما حكاه لنا التاريخ ، من أن المسلمين عندما أذن لهم الرسول ﷺ بالهجرة إلى الحبشة ووصلوا إلى هناك غاظ ذلك المشركين ، وأغرتهم كراهيتهم للإسلام أن يبعثوا إلى النجاشى – ملك الحبشة – وفدًا منهم محملًا بالهدايا والتحف؛ كى يطرد المسلمين من بلاده – وكانوا أكثر من مائة رجل وامرأة – .

وكان على رأس وفد المشركين عمرو بن العاص – قبل أن يدخل فى الإسلام–، واستعان وفد المشركين على النجاشى برجال حاشيته ، بعد أن ساقوا إليهم الهدايا، وقالوا لهم : إن ناسًا من سفهائنا فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دين الملك النجاشى ، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم . واتفقوا معهم أن يشيروا على النجاشى بطردهم .

فلما فوتح النجاشى فى الأمر ، وكان رجلًا عاقلًا سليم التفكير ، شجاع القلب، رأى أن لابد من تمحيص القضية ، وسماع أطرافها جميعًا . فأرسل إلى المسلمين فحضروا إليه ، فقال لهم : ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا فى دينى ولا فى دين أحد من الناس ؟

فقال جعفر بن أبى طالب – وكان هو المتحدث بلسان المسلمين – : «أيها الملك، كنا أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ... فبعث الله إلينا رسولًا نعرف حسبه ونسبه، وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا لوحدانية الله – تعالى –، وأن لا نشرك به شيئًا فى العبادة ، وأمرنا بصدق الحديث ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم...

(١) الداحضة : الباطلة .
(٢) أبلج : واضح مضىء.
(٣) لجلج : غير واضح .

فآمنا به، وصدقناه، فتعدى علينا قومنا، فعذبونا، فلما قهرونا وظلمونا، جئنا إلى بلادك، ونرجو أن لا نُظلَم عندك ...» .

وبعد أن استمع النجاشى إلى كلام جعفر، وإلى كلام عمرو بن العاص ، ما كان منه إلا أن قال للمسلمين: «اذهبوا فأنتم آمنون ، ما أحب أن لى جبلًا من ذهب وأننى آذيت رجلا منكم . ثم رد هدية قريش إلى عمرو ومن معه وقال لهم: ما أخذ الله الرشوة منى حتى آخذها منكم ».

واستطاع المسلمون - بقيادة جعفر بن أبى طالب - أن يقنعوا النجاشى بسلامة موقفهم ، وأن يجعلوه ينحاز إلى الحق الذى تسلحوا به ، وأما المشركون - بقيادة عمرو بن العاص - فقد باءوا بالفشل ، وعادوا إلى مكة يجرون أذيال الخيبة ، لأنهم أقاموا حوارهم مع النجاشى على الباطل ، وعلى الإشاعات الكاذبة، التى يمجها[1] العقلاء.

* * *

لقد حاربت شريعة الإسلام الإشاعات الكاذبة التى ينشرها المتحاورون مع غيرهم عن سوء نية ، بوسائل متعددة ، وبأساليب متعددة ...

حاربتها بتغليب حسن الظن على سوء الظن ، ومن الآيات القرآنية التى أكدت ذلك، قوله - تعالى -:

﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾[2] .

وقوله - سبحانه - :

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾[3] .

(١) يمجها : يرفضها. مع التابعين / البداية والنهاية.
(٢) سورة النور : الآية ١٢ .
(٣) سورة النور : ١٦ .

حاربتها عن طريق رد الأمور إلى مصادرها الأصلية ، وسؤال أهل الذكر عما يخفى فهمه، امتثالًا لقوله – تعالى – :

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧ ﴾(١) .

وقوله – سبحانه – : ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٣ ﴾(٢) .

وفى الحديث الشريف: «هلا سألوا إذا لم يعلموا، فإنما شفاءُ العى – أى الجهل – السؤال » أخرجه أبو داود.

حاربتها بالمنطق السليم ، وبالحجة القاطعة ، وبالدليل العملى الناصع ، فعندما أشاع المنافقون فى غزوة أحد ، أن الذين قتلوا فى هذه الغزوة لو أنهم بقوا فى بيوتهم لما قتلوا ، رد القرآن الكريم عليهم بما يخرس ألسنتهم فقال – تعالى – : ﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ...﴾(٣) .

حاربتها بتهديد ناشريها بالعذاب الأليم ، ومن الآيات التى أكدت ذلك قوله – سبحانه – :

﴿ لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ٦٠ مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا ٦١ ﴾(٤) .

* * *

(١) سورة الأنبياء : الآية ٧ .
(٢) سورة النساء : الآية ٨٣ .
(٣) سورة آل عمران : الآية ١٥٤ .
(٤) سورة الأحزاب : الآيتان ٦٠، ٦١ .

إن الحـوار الـذى يقوم على الحقائـق الثابتة ، والمعلومـات الصادقة ، والأخبار الصحيحـة ، يباركـه الله – تعـالى – ، ويثيـب أصحابـه ببركـة تعاونهـم عـلى البر والتقوى لا على الإثم والعدوان . أما الحوار الذى يبنى على الإشـاعات الكاذبة، والأراجيـف الباطلة ، وسـوء الظن المتعمـد ، فإن نتيجته الخيبـة والخسران ، لأن سـنة الله فى خلقـه قد اقتضـت أنه لايصح فى النهاية إلا الصحيح ، ولن تجد لسـنة الله تبديلًا .

* * *

ويعجبنى فى هذا المقام ، قول الدكتور محمد البهى – رحمه الله – فى كتابه: «تحديد المفاهيـم أولًا ص٥» : «لم يكـن اختلاف الناس فى الرأى ، واختلافهم فى تطبيقه ، إلا وليد الاختلاف فى تحديد مفاهيم الأشـياء، ومدلول الكلمات والمصطلحات ، ولم يكن قيام المذاهب الفلسفية والدينية والسياسية ، ولم تكن التبعية لها ، والجحود عليها ، إلا نتيجة الاختلاف فى الرأى وفى تطبيقه » .

## المناقشة

١ «من المبادئ والآداب التى جاءت بها شريعة الإسلام لضبط المجادلات والمناقشات أن يكون الحوار قائمًا على الصدق والبعد عن السفسطة والأوهام».

(ا) هات معنى (السفسطة ، الأوهام).

(ب) استخدم محاورك الكذب والسفسطة فى محاورته فهل تنساق وراءه وتفعل مثله؟ أم تتركه وشأنه ؟ علل لما تختار .

(جـ) اذكر موقفًا لموسى مع فرعون انتصر فيه الحق على الباطل .

٢ فى حوار سليمان مع الهدهد درس للحاكم والمحكوم. وضح .

٣ الهدف من المحاورات الوصول إلى الحقيقة .

أيد هذه العبارة بموقف من مواقف الصحابة. ثم بيِّن هل تعلَّم مناظرو زمانك منه ؟

٤ **ضع علامة (✓) أمام الصحيح و (✗) أمام الخطأ فيما يأتى :**

ـ الصوت العالى فى المحاورة نتائجه طيبة .

ـ فى المحاورات لايوجد فائز ومهزوم .

ـ احترام الرأى الآخر يجب مطلقًا .

٥ حكم سليمان ـ عليه السلام ـ فى قضية الغنم بحكم مخالف لوالده . فماذا فعل والده ؟ وعلام يدل ذلك ؟

٦ من أدب الحوار فى الإسلام تحديد مسألة الحوار وعدم التعميم.

ناقش هذه العبارة .

٧ ما الدروس المستفادة من محاورة جعفر بن أبى طالب للملك النجاشى ؟

# الفصل الثالث

# بعض القضايا التى كثر فيها الجدل حديثًا

## القضية الأولى : معاملة المسلمين لغير المسلمين :

منذ فترة ليست بالطويلة ، أثير موضوع حقوق الأقليات فى بعض الأمم ، والذى لا يختلف فيه اثنان أن بعض الأوطان معظم سكانها من المسلمين ، وهناك أوطان أخرى معظم سكانها من غير المسلمين، وقد يكون المسلم وغير المسلم يحملان جنسية واحدة لدولة واحدة ، وقد يكون الأمر خلاف ذلك .

والسؤال الذى تهمنى الإجابة عنه ، والذى كثر الجدال فى شأنه : هل شريعة الإسلام فرقت فى معاملاتها بين المسلمين وبين مواطنيهم من غير المسلمين – مهما قل عددهم – ، من حيث الحقوق والواجبات ، ومن حيث الكرامة الإنسانية ، والعدالة الاجتماعية؟

أستطيع أن أقول من واقع فهمى لشريعة الإسلام ، أنها ساوت بين الجميع فى الحقوق والواجبات ، وفى الكرامة الإنسانية ، وفى العدالة الاجتماعية ، وفى صيانة أرواح الجميع وأعراضهم وأموالهم من كل عدوان، وفى إقامة العلاقات بينهم على أساس التسامح والتراحم وتبادل المنافع التى أحلها الله – تعالى – .

ومن الأدلة على ذلك أنها أمرت المسلمين بأن يقيموا علاقاتهم مع غيرهم على البر والقسط ، ماداموا لم يسيئوا إليهم . استمع إلى قوله – تعالى – :

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ

﴿وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ (١).

أى : لاينهاكم الله – أيها المسلمون – عن مودة وصلة غيركم ممن يخالفونكم فى العقيدة والدين ، ما دام هؤلاء المخالفون لكم فى دينكم ، لم يسيئوا إليكم ، بل عليكم أن تقيموا علاقتكم معهم على العدل والبر ، لأن الله – تعالى – يحب العادلين فى أقوالهم وأفعالهم وأحكامهم ...

إنما ينهاكم الله – تعالى – عن بر وصلة من أظهر لكم العداوة ، أو عاون غيره على ذلك ، ومن يتعاون منكم – أيها المسلمون – مع من أساء وحارب دين الإسلام يكن من الظالمين المستحقين للعقاب الشديد.

فأنت ترى أن هاتين الآيتين قد رسمتا للمسلمين – بكل صراحة ووضوح – كيف يبنون علاقاتهم مع من يخالفونهم فى عقيدتهم، إذ الآية الأولى تدعو إلى بر غير المسلمين الذين لم يسيئوا إلينا وصلتهم، بينما الآية الثانية تنهى عن ذلك بالنسبة لمن أظهر الشر لنا أو أعان غيره على مافيه مضرة بنا، وهذه قاعدة عامة بالنسبة لمعاملة غير المسلمين جميعا.

أما بالنسبة لغير المسلمين من أهل الكتاب – وهم اليهود والنصارى – فيضاف إلى هذه القاعدة العامة، أن شريعة الإسلام نهت عن مجادلتهم إلا بالتى هى أحسن، حتى تستمر العلاقة الطيبة بيننا وبينهم. قال – تعالى –:

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ (٢).

ولم تكتف شريعة الإسلام بذلك، بل أباحت مؤاكلة أهل الكتاب، والأكل من ذبائحهم

(١) سورة الممتحنة : الآيتان ٨، ٩ .
(٢) سورة العنكبوت : الآية ٤٦ .



طبعة ٢٠١٨ / ٢٠١٩م

والزواج من نسائهم دون نساء المشركين، واستمع إلى قوله - تعالى -:

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾ ﴾(١).

وجاءت أحاديث النبى ﷺ ففصلت ما أجمله القرآن الكريم، وأمرت بمعاملة أهل الكتاب معاملة كريمة، تقوم على الحق الذى لا يلتبس به باطل، وعلى العدل الذى لا يحوم حوله ظلم، وعلى المصارحة التى لا تعرف الملق(٢) أو النفاق. .

فإذا ما أصبح المسلمون وغير المسلمين يعيشون فى دولة واحدة، ويحملون جنسية واحدة، ويضمهم وطن واحد، وتظلهم سماء واحدة، وتقلهم أرض واحدة، وتجمعهم مصالح مشتركة، كما هو الحال بالنسبة لنا فى مصر.

أقول : إذا ما أصبح الحال كذلك، صار غير المسلمين - مهما قل عددهم - لهم ما للمسلمين من حقوق، وعليهم ما على المسلمين من واجبات ، وفى الوقت ذاته لكل فريق منهم عقيدته التى اختارها لذاته ، ودينُه الذى ارتضاه لنفسه ؛ لأن العقائد والأديان لا إكراه عليها ولا إجبار ، كما قال - سبحانه -:

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾(٣)(٤)(٥).

(١) سورة المائدة : الآية ٥ .
(٢) الملق : التضرع .
(٣) الغى : الضلالة والكفر .
(٤) العروة الوثقى : العقيدة المحكمة الوثيقة .
(٥) سورة البقرة : الآية ٢٥٦ .

ومادام غير المسلم يحترم عقيدة المسلم ولا يسيء إليها ، وما دام يحترم حق المواطنة فى الدولة التى دينها الرسمى الإسلام ، فشريعة الإسلام توجب على أتباعها تبادل هذا الاحترام ، وتنهاهم عن الإساءة إلى عقائد غيرهم ، واستمع إلى قوله - تعالى - :

﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾(١) .

ويطول المقال لو أردنا أن نسوق الأدلة المتعددة على أن شريعة الإسلام لاتفرق فى الحقوق والواجبات ، وفى تحقيق العدالة بين الناس سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين، لأن فضيلة العدل عليها قامت السموات والأرض - كما جاء فى الحديث الشريف - ، وقد أمرنا - سبحانه - أن نكون عادلين فى أقوالنا ، وأحكامنا ، وشهادتنا، مع أصدقائنا ومع أعدائنا ، قال - تعالى - :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾(٢) .

وحسبنا أن نذكر قصة ، أشار إليها القرآن الكريم فى تسع آيات من سورة النساء من (١٠٥ - ١١٣) ، وتتلخص أحداث هذه القصة فى أن رجلا ممن يظهرون الإسلام اسمه طعمة بن أبيرق ، سرق درعًا من جار له اسمه قتادة بن النعمان، ثم خبأها سرًّا عند رجل يهودى يدعى زيد بن السمين ، وعندما ضبطت الدرع عند اليهودى ، ذكر أن طعمة بن أبيرق هو الذى وضعها عنده ، ولكن طعمة أنكر ذلك وزعم أن اليهودى هو السارق ، وجاء أقارب طعمة ليدافعوا

(١) سورة الأنعام : الآية ١٠٨ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٨ .

بالباطل، فما المنهج العادل الذى نزل القرآن لتحقيقه ؟ كان هذا المنهج القويم يتمثل فى

قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ (١).

لقد وبخ - سبحانه - أقارب طعمة بن أبيرق الذين دافعوا عنه بالباطل ، وشهدوا شهادة ليست عادلة، فقال - تعالى - :

﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾(٢).

ثم فتح - سبحانه - بعد هذا التوبيخ الشديد للخائنين باب التوبة الصادقة فقال :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾(٣).

وهكذا نرى هذه الآيات الكريمة تهدى الناس إلى الحق الذى لا يميل مع الهوى، ولا مع العصبية، ولا يتأرجح مع الحب أو البغض أو مع الكثرة أو القلة، حتى ولوكان الذى عليه الحق ممن يظهرون الإسلام، ويعاملون معاملة المسلمين، وكان الذى له الحق من غير المسلمين ، فهل رأيت - أيها القارئ الكريم - عدالة تقترب من هذه العدالة فى سموها ونقائها واستقامة منهجها ؟ !!

* * *

(١) سورة النساء : الآية ١٠٥ - ١٠٧ .
(٢) سورة النساء : الآية ١٠٩ .
(٣) سورة النساء : الآية ١١٠ .

إن القاعدة الأولى فى معاملة غير المسلمين – مهما قل عددهم – ، والذين يعيشون مع إخوانهم المسلمين فى دولة واحدة ، ويحمل الجميع جنسية واحدة وتظلهم راية واحدة ، القاعدة الأولى : أن لهم ما للمسلمين من حقوق، وعليهم ما على المسلمين من واجبات ، والكل تصون شريعة الإسلام عرضه وماله وكرامته ، ومن يحسن منهم فى قوله أو فعله يثاب ويكافأ على إحسانه، ومن يسئ منهم فى قوله أو فعله يحاسب على إساءته دون محاباة[1] أو ظلم ، وفى الوقت ذاته لكل إنسان عقيدته التى اختارها ، ودينه الذى ارتضاه لنفسه، وأصحاب العقائد السليمة ، والعقول القويمة – ولاسيما الذين يحملون جنسية واحدة – لايتصارعون ، ولا يتحاسدون، ولا يتطاولون ، ولا يبغى بعضهم على بعض ، وإنما يتعاونون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان

و﴿ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾[2].

* * *

## القضية الثانية حقوق المرأة وواجباتها :

وأريد هنا أن أركز على إبراز أهم مظاهر التكريم والإعزاز للمرأة ، كما جاءت بها شريعة الإسلام فأقول :

إن المتدبر للقرآن الكريم ، يراه قد خص المرأة بحديث مستفيض ، بين فيه حقوقها وواجباتها ، ورفع من شأنها ، وأثنى عليها بما تستحقه من تكريم ، وشملها فى جميع تشريعاته بالرحمة والعدل، ووكل إليها أمورًا مهمة فى حياة المجتمع ، وسوى بينها وبين الرجل فى معظم شئون الحياة ، ولم يفرق بينهما إلا حيث تدعو إلى هذه التفرقة طبيعة كل من الجنسين، ومراعاة المصلحة العامة للأمة ، والحفاظ على تماسك الأسرة واستقامة أحوالها ، بل ومنفعة المرأة ذاتها.

ومن أبرز مظاهر تكريم شريعة الإسلام للمرأة ، ووجوه المساواة بينها وبين الرجل مايأتى :

(١) محاباة : مسامحة أو مجاملة .

(٢) سورة الحديد (٢١)

### ١ تقرير المساواة بينهما فى أصل الخلقة :

وهذه الحقيقة نراها فى آيات متعددة، منها قوله – تعالى – :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾(١) .

ولتأكيد هذه الحقيقة، وهى أن الذكور والإناث يتساوون فى أصل الخلقة، حرمت شريعة الإسلام تحريمًا قاطعًا؛ ماكان شائعًا بين بعض قبائل العرب فى الجاهلية ، من تفضيل الذكور على الإناث، ومن قتل البنات وهن صغار. ومن الآيات التى حرمت ذلك تحريمًا شديدًا، قوله – تعالى – :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾(٢) .

ومن كل ما تقدم يتبين لنا أن الرجل والمرأة متساويان فى أنهما من أصل واحد، وأنه ليس لأحدهما من مقومات الإنسانية أكثر مما للآخر ، وأنه لا فضل لأحدهما على الآخر إلا بالإيمان والعمل الصالح ... ومع هذه المساواة بين الرجال والنساء فى أصل الخلقة، إلا أن الله – تعالى – قد اقتضت حكمته لعمارة هذا الكون، أن يختص الرجال – فى مجموعهم – بالمزيد من قوة الجسم، ومن تحمل المشاق ... وأن يختص النساء – فى مجموعهن – برقة العواطف ، وحنان القلب . ويكفى أن الرسول ﷺ قد وصفهن بالقوارير، وقال: « ما أكرم النساء إلا كريم ، وما أهانهن إلا لئيم» ، وقال: «استوصوا بالنساء خيرًا »(٣).

* * *

(١) سورة النساء : الآية ١.
(٢) سورة النحل : الآيتان ٥٨ ، ٥٩ .
(٣) رواه مسلم.

## ٢ المساواة بينهما فى التكاليف الشرعية :

كثيرا ما نرى القرآن الكريم يجمع بين الرجال والنساء فى التكاليف الشرعية، وفى الأوامر الدينية ، وفى الثواب على الإحسان ، وفى العقاب على المعصية ، وفى توجيه الخطاب إليهما معًا ..

ومن الآيات القرآنية التى تدل على ذلك قوله – سبحانه – :

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّآئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾(١) .

فهذه الآية الكريمة قد اشتملت على عشر فضائل، جمع الله – تعالى – فيها بين الرجال والنساء. وأخبر أن الثواب العظيم كائن لمن يتحلى بها، سواء أكان من الذكور أم من الإناث .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : ماروواه الإمام أحمد والنسائى وغيرهما ، عن أم سلمة – رضى الله عنها – قالت : قلت للنبى ﷺ: ما لنا لا نذكر فى القرآن كما يذكر الرجال ؟

قالت : فلم يَرُعْنِى منه ﷺ ذات يوم إلا نداء على المنبر، وهو يتلو هذه الآية .

وقال – سبحانه – :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

(١) سورة الأحزاب : الآية ٣٥ .

(٢) سورة النحل : الآية ٩٧ .

فهذه الآية الكريمة سوت بين الرجال والنساء فى الثواب على العمل الصالح، وفى الحصول على الحياة الطيبة، وشبيه بهذه الآية قوله - سبحانه - :

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾(١).

ففى هذه الآيات أسمى ألوان البشارات لمن يؤدى هذه التكاليف الشرعية ، والفضائل الخلقية ، سواء أكان من الرجال أم من النساء .

هذا ، وقد بايع النبى ﷺ النساء كما بايع الرجال على إخلاص العبادة لله - تعالى - وعلى أداء التكاليف الشرعية وعلى التحلى بمكارم الأخلاق . قال - تعالى - :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾(٢) .

فالآية الكريمة صريحة فى أن النساء يتساوين مع الرجال فى مبايعتهن لرسول الله ﷺ على الالتزام بالتكاليف الشرعية، التى كلف - سبحانه - بها الرجال.

(١) سورة التوبة : الآيتان ٧١ ، ٧٢ .
(٢) سورة الممتحنة : الآية ١٢ .

وإذا كانت شريعة الإسلام قد أسقطت عن النساء بعض التكاليف الشرعية فى حالات الحيض أو النفاس، فذلك من باب الرحمة بهن، والتخفيف عنهن، ومراعاة أحوالهن الجسمية والنفسية. وبذلك نرى أن شريعة الإسلام لم تفرق بين الرجال والنساء فيما يتعلق بالتكاليف الشرعية، من عقائد وعبادات وآداب وسلوك حميد، وغير ذلك من وجوب اعتناق الفضائل، واجتناب الرذائل.

* * *

### ٣ المساواة فى طلب العلم والمعرفة:

كما أن شريعة الإسلام لم تفرق بين الرجل والمرأة فى أصل الخلقة، وفى التكاليف الشرعية - كما سبق أن ذكرنا -، كذلك لم تفرق بينهما فى طلب العلم، بل أمرتهما بالتسلح بالعلم النافع، وبالثقافة المفيدة، وبالمعرفة التى تعود عليهما وعلى أمتهما بالخير.

لقد جاءت الأحاديث النبوية الشريفة، فأكدت التكريم لأهل العلم سواء أكانوا من الرجال أم من النساء، ففى الصحيحين[١]: «من يرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين».

وروى أبو داود والترمذى عن أبى الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «من سلك طريقا يبتغى فيه علما، سهل الله له طريقا إلى الجنة...».

ولقد كان النبى ﷺ يجعل وقتًا للنساء يخصهن فيه بالإرشاد والتعليم والإجابة عن أسئلتهن، فقد روى البخارى وغيره عن أبى سعيد الخدرى قال: «قالت النساء للنبى ﷺ غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يومًا من نفسك، فوعدهن يومًا لقيهن فيه، فوعظهن وأمرهن ...»[٢].

وفى حديث آخر: جاءت امرأة للنبى ﷺ فقالت: «يارسول الله، ذهب الرجال بحديثك، فاجعل لنا مِنْ نفسك يومًا نأتى إليك فيه تعلمنا مما علمك الله. قال ﷺ: فاجتمِعنَ يوم كذا وكذا، فجاء ﷺ فعلمهن مما علمه الله».

(١) الصحيحان: البخارى ومسلم.
(٢) رواه مسلم.

والذى يراجع كتب السنة النبوية ، يرى كثيرًا من الأحاديث قد رواها عدد من النساء عن النبى ﷺ ، وقد كان للسيدة عائشة - رضى الله عنها - نصيب كبير منها، وكذلك لغيرها من أمهات المؤمنين .

وفى عصرنا هذا ، نجد الآلاف من النساء اللائى بلغن أسمى الدرجات فى تحصيل العلم ، ووصلن إلى أرقى المناصب فى شتى الوظائف ، وهذا شىء يسعد الأمم ، ونسأل الله - تعالى - منه المزيد والمزيد .

* * *

### ٤ المساواة فى حق العمل :

إن العمل الذى أحله الله - تعالى - حق مشروع لكل من الرجل والمرأة دون تفرقة بينهما فى هذا الحق .. قال - تعالى - :

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ ﴾(١) .

وقال - سبحانه - : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾(٢) .

وليس فى شريعة الإسلام ، ما يمنع المرأة من أن تكون طبيبة أو مهندسة أو مدرسة أو تاجرة ، أو فى أى عمل شريف ، تبغى من ورائه الرزق الحلال الذى يغنيها عن سؤال الناس ، وتؤديه بعفاف واحتشام وستر لما أمر الله - تعالى - بستره من جسدها .

لقد أباحت شريعة الإسلام للمرأة أن تضطلع(٣) بالوظائف العامة ، وبالأعمال المشروعة ، التى تحسن أداءها ، ولا تتنافى مع طبيعتها كأنثى ، ولم تقيد هذا الحق إلا بما يحفظ لها كرامتها ، ويصونها عن التبذل(٤) ، وينأى بها عن كل ما يتعارض

(١) سورة آل عمران : الآية ١٩٥ .
(٢) سورة النحل : الآية ٩٧ .
(٣) تضطلع : تنهض بها .
(٤) التبذل : عدم الحشمة والحياء .

مع الخلق الكريم ، والسلوك الحميد ، ويبعدها عن قيامها بواجباتها نحو زوجها وأولادها ..

والمتدبر لأحوال المجتمع فى العهد النبوى وفى عهود السلف الصالح ، يرى أن النساء كن يقمن بكثير من الأعمال داخل بيوتهن وخارجها .

فهذه أسماء بنت أبى بكر الصديق ، بعد أن تزوجت بالزبير بن العوام رضي الله عنه تقول عن نفسها : « كنت أخدم الزبير خدمة البيت كله ، وكنت أسوس فرسه وأعلفه ، وكنت أفرز الدلو ، وأسقى الماء ، وأحمل النوى على رأسى من أرض له على ثلثى فرسخ » .

وهذه عائشة وأم سُلَيم ، كانتا تخدمان المجاهدين فى غزوة أحد ، وتقدمان لهم الماء وما هم فى حاجة إليه .

وهذه أميمة بنت قيس الغفارية ، أبلت بلاء حسنًا فى غزوة خيبر ، فقلدها الرسول ﷺ بعد الغزوة قلادة ، فكانت تتزين بها على صدرها طول حياتها ، وأوصت بدفنها معها بعد وفاتها .

وهكذا نرى أن شريعة الإسلام قد سوت بين الرجل والمرأة فى حق العمل ، مادام هذا العمل من الأعمال التى أحلها الله – تعالى – ، ويتناسب مع طبيعتها وخصائصها وكرامتها ..

* * *

## ٥ المساواة فى الحقوق المدنية :

إن الذى يتأمل شريعة الإسلام ، يراها قد سوت بين الرجال والنساء ، فيما يسمى بالحقوق المدنية على اختلاف أنواعها ، كالبيع والشراء والتملك والتصرف فى التملك والوكالة وغير ذلك من ألوان التصرف ، ومن الأدلة على ذلك ما يأتى:

إذا كانت الفتاة لم تبلغ سن الرشد ، فقد أمر القرآن الكريم وليها بالمحافظة على أموالها ، وبالعمل على تنمية هذه الأموال واستثمارها حتى تبلغ سن الرشد ، فإذا

مـا بلغت هذه السـن ، وجـب عليه أن يؤدى إليها مالها كامـلًا غير منقوص ، ولا فرق فى ذلك بين الذكر والأنثى .

ومن الآيات التى تقرر ذلك قوله – تعالى – : ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ (١) (٢) .

وقوله – سبحانه – :

﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾ (٣) .

فـإذا مابلغـت المرأة سـن الرشـد ، أباحت لها شريعـة الإسـلام – كغيرها من الرجـال – أن تتعاقـد عـن طريق البيع أو الـشراء أو الهبة أو الوصية ، أو ما يشـبه ذلـك من العقود ، وأعطتها كامـل الحرية فى تحمل الالتزامات ، وفى تملك ما تريد أن تتملكـه من أموال أو عقارات أو منقـولات ، وأن تتصرف فيما تملكه بالطريقة التـى تختارهـا ، ولا يصـح لغيرها سـواء أكان زوجًـا أم غـير زوج أن يتصرف فى أموالها إلا بإذنها ...

كـما أن شريعة الإسـلام أباحت للمرأة البالغة الرشـيدة ، أن تختار الذى تريده اختيارا حرًّا ، لا إكراه معه ولا إجبار ، ومنعت وليها من إجبارها ، وجعلت العقد عليها دون استئذانها غير صحيح ، وأباحت لها حق المطالبة بفسخ عقد الزواج .

ومن الأحاديث الصحيحة التى وردت فى وجوب استئذان المرأة قبل زواجها، قوله ﷺ : « لاتُنكح الأيم – أى التى سبق لها الزواج – حتى تُستأمر – أى : حتى تـصرح برضاهـا – ولا البكر حتى تستأذن : قالوا : يارسـول الله ، وكيف إذنها؟ قال : أن تسكت » [رواه البخارى].

(١) سورة النساء : الآية ٢ .
(٢) حوبا : إثمًا عظيما .
(٣) سورة النساء : الآية ٦ .

بـل إن الإمام أبا حنيفة يرى أن للمرأة البالغة الرشـيدة، أن تزوج نفسـها بمن تشـاء ، بـشرط أن يكـون كفئًا لهـا ، وليس لوليها حـق الاعتراض عليهـا ، إلا إذا زوجت نفسها من غير كفءٍ لها ، أو كان مهرها أقل من مهر مثلها .

ومـن حجج الإمام أبى حنيفة فى ذلك: أنها مادامت تسـتقل بعقد البيع وغيره من العقود ، فمن حقها أن تستقل بعقد زواجها ، إذ لا فرق بين عقد وعقد.

وهكذا نرى شريعة الإسلام ، قد أعطت المرأة كل الحقوق التى أعطتها للرجل، من حيث التملك، والتصرف فى تلك الممتلكات أنواع التصرفات المشروعة كافة.

* * *

## ٦ المساواة فى تحمل المسئولية والجزاء عليها :

إن من القواعد المقررة فى شريعة الإسلام، أن المرأة كالرجل فى تحمل المسئولية، فهما يستويان فى الثواب على الطاعة ، وفى العقاب على المعصية . قال – تعالى– :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾(١)(٢) .

وقـال – سـبحانه – : ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ ﴾(٣)(٤) .

وقال – عز وجل – : ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ... ﴾(٥) .

وفى الصحيحين أن رسـول الله ﷺ قـال : « **كلكـم راع وكلكم مسـئول عن رعيته . الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته. والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ...** » .

(١) سورة النساء : الآية ١٢٤ .
(٢) نقيرًا : قدر النقرة فى ظهر النواة .
(٣) سورة المائدة : الآية ٣٨ .
(٤) نكالًا : عقوبة .
(٥) سورة النور : الآية ٢ .

**والخلاصة : أن من المبادئ والأسس التى قامت عليها شريعة الإسلام : أن كل إنسان بالغ عاقل، مسئول عن تصرفاته وأقواله وأفعاله ، سواء أكان رجلًا أم امرأة، حاكمًا أم محكومًا ...**

* * *

## ٧ المساواة فى الكرامة الإنسانية :

إن كرامة الرجل من كرامة المرأة ، وكرامة المرأة من كرامة الرجل ، ولقد كرم الله – تعالى – جميع ذرية آدم – عليه السلام – فقال :

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ (١) .

والمقصود ببنى آدم هنا : مايشمل ذكورهم وإناثهم .

والقرآن الكريم ساوى بين الرجال والنساء فى وجوب صيانة أعراضهم ، وفى وجوب عقوبة من يقذفهم بالتهم الباطلة ، ويكفى قوله – سبحانه – :

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ (٢) .

وقوله – سبحانه – : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ (٣) .

وثبت أن النبى ﷺ كما قبل جوار الرجال ، قبل جوار النساء ، وكما أكرم الرجال أكرم النساء ، وقال للسيدة أم هانئ عندما أجارت بعض أقارب زوجها : «قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ» [رواه البخارى].

(١) سورة الإسراء : الآية ٧٠ . (٢) سورة الأحزاب : الآية ٥٨ – والبهتان : الكذب المحير لفظاعته.
(٣) سورة النور : الآية ٢٣ .

بل لعلى لا أكون مبالغًا إذا قلت إن حرص شريعة الإسلام على كرامة النساء ، تفوق حرصها على غيرهن .

* * *

## ٨ المساواة فى أصل التوارث :

كانت المرأة فى الجاهلية لا ترث شيئًا من المال ، وكذلك الصغار وإن كانوا ذكورًا، وكان أهل الجاهلية يقولون : لا يرث إلا من قاتل على ظهور الخيل ، وطاعن بالرمح ، وقاتل بالسيف ، وحاز الغنيمة .

فجاء الإسلام وقرر أن للمرأة حقًّا فى الميراث كالرجل . قال – تعالى – :

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ ﴾(١) .

ثم فصلت شريعة الإسلام هذا الحق فى التوارث ، فجعلت نصيب الأنثى نصف الذكر ، قال – تعالى – :

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ ... ﴾ (٢) .

وقد جعل – سبحانه – نصيب الذكر ضعف نصيب الأنثى ؛ لأن التكليفات المالية على المرأة ، تقل كثيرًا عن التكليفات المالية على الذكر ، إذ الرجل مكلف – شرعًا – بالنفقة على نفسه ، وعلى زوجته ، وعلى أولاده ، وعلى كل من يعولهم، بينما المرأة نصيبها من الميراث أو من كل ماتملكه لها خاصة ، لا يشاركها فيه مشارك، اللهم إلا على سبيل التبرع والمساعدة لغيرها.

* * *

(١) سورة النساء : الآية ٧ .

(٢) سورة النساء : الآية ١١ .

## الخلاصـــة :

وبعد : من كل ماتقدم نرى أن شريعة الإسلام قد ساوت بين الرجال والنساء فى أصـل الخلقـة، وفى التكاليـف الشرعية وفى طلب العلـم، وفى حق العمل، وفى الحقوق المدنية ، وفى تحمل المسئولية ، وفى الكرامة الإنسانية، وفى أصل التوارث، ولكـن هل معنى هذه المسـاواة أنه لاتوجـد أية فوارق بين الرجـل والمرأة ؟ الحق أن شريعـة الإسـلام قـد فرقت بين الرجـل والمرأة فى أمـور معينـة؛ لأن العدالة ، والمصلحة، وسعادة الجنسين، وطبيعة كل منهما تقتضى ذلك، إذ ما بالذات لايتغير، والرجـل رجل فى خصائصه وتكوينه، والمرأة امرأة فى خصائصها وتكوينها . وقد أشـار القرآن الكريم فى مواطن متعددة إلى تلك الفوارق بين الرجل والمرأة، ومن ذلك قوله – تعالى – :

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾(١) .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : ما جاء عن السيدة أم سـلمة – رضى الله عنها – أنها قالت للرسـول ﷺ : يارسول الله، يغزو الرجال ولا نغزو، ولنا نصف الميراث ، فأنزل الله – تعالى – هذه الآية.

وهذه نماذج موجزة لأمور فرقت فيها شريعة الإسلام بين الرجال والنساء :

فى مجال العبادات نجد شريعة الإسـلام قد أسـقطت الصلاة عن المرأة فى حال حيضهـا ونفاسـها ، ولم تكلفهـا بقضائها بعد طهرهـا رحمة بهـا ، وأوجبت عليها الفطر فى رمضان فى هاتين الحالتين ، على أن تقضى ما أفطرته بعد شهر رمضان .

وفى مجال الأعباء الاقتصادية، خفضت شريعة الإسـلام للمرأة جناح الرحمة ، وكفلت لها من أسباب الرزق ما يحميها من التبذل ، ويصونها من شرور الكدح فى

(١) سورة النساء : الآية ٣٢ .

الحياة ، وألقت بمعظم هذه الأعباء الاقتصادية على كاهل الرجل ، فالمرأة قبل الزواج ، أوجبت شريعة الإسلام نفقتها على أصولها أو فروعها أو أقربائها ، ما دامت لا تملك من المال ما يكفيها ، أما فى حالة زواجها فنفقتها على زوجها ، حتى ولو كانت تملك من المال ما يغنيها عنه ، إذ أموالها الخاصة ملك لها ، اللهم إلا إذا تبرعت أو ساعدت غيرها بما تشاء من أموالها الخاصة برضاها واختيارها .. وحتى فى حال الطلاق ، فإن الزوج يتحمل جانبًا كبيرًا من أمواله لزوجته ، إذ عليه أن يدفع لها مؤخر الصداق ، وعليه نفقتها من مأكل وملبس ومسكن مادامت فى العدة ، وعليه أجور حضانة أولاده منها ونفقتهم ... وقد فصلت كتب الفقه أحكام نفقة المرأة فى كل مراحل حياتها، تفصيلًا دقيقًا حكيمًا .

وفى مجال المسئولية عن الأسرة ، جعلت شريعة الإسلام حق القوامة والرياسة للرجل لا للمرأة ، لأنه هو المكلف بالإنفاق ، وهو الأقوى على تحمل هذه المسئولية. وهذه القوامة والرياسة تقوم على المودة والرحمة لا على الطغيان. وقد قرر القرآن هذه القوامة والرياسة للرجل فى آيات منها قوله – تعالى – :

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(١) .

أى : وللنساء على الرجال من الحقوق مثل ما للرجال عليهن ، إلا أن للرجال على النساء مزية وزيادة فى الحقوق ، بسبب حمايتهم لهن ، وقيامهم بشئونهن ونفقتهن وغير ذلك من واجبات ومسئوليات .

وفى مجال الآداب ومكارم الأخلاق أمر الله – تعالى – المرأة متى كانت بالغة أن تلتزم بالحياء ، والعفاف ، والاحتشام ، وستر ما أمر الله – تعالى – ستره من جسدها ، امتثالًا لقوله – سبحانه – :

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ﴾ (٢) .

(١) سورة البقرة : الآية ٢٢٨ .

(٢) سورة النور : الآية ٣١ .

وجمهور الفقهاء على أن المقصود بما ظهر منها : الوجه واليدان، وهذا لا يمنع أن تظهر المرأة بالملبس الجميل ، وبالمظهر الحسن ، وبالكيفية التى تراها مناسبة لها، بشرط أن تكون ملابسها ساترة لما أمر الله – تعالى – بستره من جسمها .

وستر ما يجب ستره من جسدها : من المسائل التى لاتقبل نقاشًا أو جدالًا أو تأويلًا سقيمًا ، لأنها ثابتة من الدين ثبوتًا لا يقبل التردد ، وكل ماثبت من الدين بالضرورة علينا أن نقول أمامه سمعنا وأطعنا ، سواء أفهمنا الحكمة أم لم نفهمها، وصدق الله إذ يقول :

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾(١) .

* * *

## القضية الثالثة : تنظيم الأسرة :

أما القضية الثالثة التى كثر الحديث فيها ، واختلف الناس فى الحكم الشرعى بالنسبة لها اختلافاً واسعا ، فهى مسألة «تنظيم الأسرة» وقد كتبت بشأن هذه المسألة منذ بضع سنوات بحثًا مفصلًا قلت فيه ما خلاصته :

إن مسألة تنظيم الأسرة من المسائل التى اهتمت بها بعض الدول والهيئات، وكتبت فيها عشرات البحوث والمقالات .

وقبل أن أبدأ الحديث عن هذه المسألة من الناحية الدينية ، أحب أن نتفق على الحقائق التالية ، لأن تحديد موضع النزاع – كما يقول علماء أصول الفقه– يعين على حسن الاقتناع . وهذه الحقائق هى :

(١) إن الشرائع السماوية التى أنزلها الله – تعالى – على أنبيائه – عليهم الصلاة والسلام – ، مقاصدها الأساسية ، هداية الناس إلى الصراط المستقيم ، ورسم طريق السعادة ، وغرس المعانى الفاضلة فى قلوبهم ... قال – تعالى – :

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾(٢) .

(١) سورة الأحزاب : الآية ٣٦ .

(٢) سورة إبراهيم : الآية ١ .

(٢) إن الكلام فى الأمور الدينية بصفة خاصة ، وفى غيرها بصفة عامة ، يجب أن يكون مبنيًّا على العلم الصحيح ، والفهم السليم ، والإخلاص فى الوصول إلى الحق ، والسؤال عما يكون خافيًا من الأمور، فالله – تعالى – يقول :

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧ ﴾ (١) .

وفى الصحيحين عن عبد الله بن عمرو – رضى الله عنهما – أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من قلوب العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالم ، اتخذ الناس رؤوسًا جهالًا ، فسئلوا فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا » .

(٣) إن الخلاف فى الأمور التى تقبل الاجتهاد لا غبار عليه ، ولا ضرر منه، ما دام القصد من وراء هذا الخلاف ، الوصول إلى الحق ، ومادام مصحوبًا بالنية الحسنة، وبالكلمة الطيبة ، وبالمناقشة الرصينة التى يزينها الأدب ، ومكارم الأخلاق .

ولقد سما النبى ﷺ بهذا الاجتهاد ، فبشر أصحابه بأنهم مأجورون سواء أصابوا أم أخطأوا ، ففى الحديث الصحيح : « إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر واحد » رواه مسلم.

(٤) إن الأولاد هم ثمرة القلب ، وإحدى زينتى الحياة الدنيا ، وقد تمنى الذرية جميع الناس حتى الأنبياء ، ولكن الأولاد فى الوقت نفسه ، هم أمانة فى أيدى آبائهم ، ويجب على الآباء أن يرعوا هذه الأمانة حق رعايتها ، بأن يحسنوا تربيتهم دينيًّا ، وجسميًّا ، وعلميًّا ، وخلقيًّا ، وبأن يقدموا لهم ما هم فى حاجة إليه من عناية مادية ومعنوية ، ففى الحديث الصحيح : «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» رواه الشيخان.

(٥) إن هذا الكون قد أقامه الله – تعالى – على نظام دقيق بديع محكم ، إذ كل شىء فيه يسير وفق تدبير متقن ، وتنظيم بديع ، فالشمس تشرق وتغرب فى وقت

(١) سورة الأنبياء : الآية ٧ .

معلوم ومثلها القمر والليل والنهار ، كما قال – سبحانه – :

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾(١) .

(٦) إننا نعيش فى عصر لاتتنافس فيه الأمم بكثرة أفرادها، ولا باتساع أراضيها، وإنما نحن نعيش فى عصر تتنافس فيه الأمم بالاختراع والابتكار ووفرة الإنتاج، والتقدم العلمى بشتى صوره وألوانه.

هذا التقدم الذى يجعل احتياج الآخر إليك، أكثر من احتياجك إليه. ونحن نشاهد أممًا أقل عددًا من غيرها ولكنها أقوى وأغنى من ذلك الآخر. والأمثلة على ذلك يعرفها عامة الناس، فضلًا عن علمائهم.

(٧) إن من مزايا شريعة الإسلام، أن الأمور التى لاتختلف المصلحة فيها باختلاف الأوقات والبيئات والاعتبارات، تنص على الحكم فيها نصًّا قاطعًا، لامجال معه للاجتهاد والنظر كوجوب التحلى بالفضائل والتخلى عن الرذائل.

أما الأمور التى تخضع فيها المصلحة للظروف والأحوال، فإن شريعة الإسلام تكل الحكم فيها إلى أرباب النظر والاجتهاد والخبرة، ومن هذه الأمور: مسألة تنظيم الأسرة، فإنها من المسائل التى تختلف فيها الأحكام باختلاف ظروف كل أسرة، وكل دولة، وباختلاف إمكاناتها.

فمثلًا هناك دول، هى فى حاجة إلى الكثرة البشرية، لأن وسائل الإنتاج والرقى فيها تحتاج إلى هذه الكثرة القوية المنتجة الرشيدة، وأمثال هذه الدول يقال لها: مرحبًا بهذه الكثرة المؤمنة القوية العاقلة.

وهناك دول لاتحتاج إلى الكثرة فى عددها، لأن هذه الكثرة موجودة فيها، ولأن إمكاناتها لاتتحملها، ولأن السواد الأعظم من أفرادها، يعيش على جهود القلة فيها، ولأنها مع كثرتها تستورد من غيرها معظم ضروريات حياتها.

(١) سورة يس : الآية ٤٠ .

وأمثال هذه الدول يكون تنظيم الأسرة فيها أمرًا مرغوبًا فيه، ومطلوبًا منها مع غيره من الوسائل الأخرى التى تؤدى إلى تقدمها، كمضاعفة الإنتاج، وتطوير الزراعة والصناعة وغيرهما، وحرص أفرادها على أداء ما عليهم من واجبات بإحسان وإتقان وعفاف ومراقبة لله – تعالى – .

مرة أخرى نقول: إن الكثرة الصالحة المنتجة مرحبًا بها، أما الكثرة الضعيفة فى دينها وفى خلقها وفى أدائها لما يجب عليها نحو خالقها ونحو أوطانها...، والمعتمدة فى كثير من ضروريات حياتها على غيرها، فالقلة خير منها.

بعد هذه الحقائق التى أرجو أن تكون محل اتفاق، أحب أن أدخل إلى موضوع «تنظيم الأسرة» بأسلوب السؤال والجواب فأقول:

**أولًا**: ما معنى تنظيم الأسرة؟ وهل هناك فرق بينه وبين التحديد والتعقيم والإجهاض ؟

**والجواب**: ببساطة لاتعقيد معها: إن تنظيم الأسرة معناه: أن يتخذ الزوجان باختيارهما واقتناعهما، الوسائل التى يريانها كفيلة بتباعد فترات الحمل، أو إيقافه لمدة معينة من الزمان، يتفقان عليها فيما بينهما، مع اقتناعهما التام بأن هناك ضرورة تقرها شريعة الإسلام تدعو إلى ذلك، وبأن ما قدره الله ـ تعالى ـ لابد أن يكون، وهما إنما يباشران الأسباب فقط، وهذه الأسباب قد تنجح وقد لاتنجح.

والمقصود من ذلك: تقليل عدد أفراد الأسرة، بصورة تجعل الأبوين يستطيعان القيام برعاية أولادهما، رعاية متكاملة دون عسر، أو حرج، أو اختلاط فى المضاجع بين الذكور والإناث، أو احتياج مذل.

وهناك فرق شاسع بين تنظيم الأسرة بهذا المعنى الذى ذكرنا، وبين التحديد والتعقيم والإجهاض إذ تحديد النسل بمعنى منعه منعًا مطلقًا ودائمًا حرام شرعًا، ومثله التعقيم الذى هو بمعنى القضاء على أسباب النسل نهائيًّا.

وأما الإجهاض وهو إسقاط الجنين من بطن أمه، فهو حرام ـ أيضًا ـ ، وممنوع شرعًا، إلا إذا وجدت الضرورة التى تحتمه، كأن يقول الطبيب الثقة: إن بقاء الجنين فى بطن أمه سيؤدى إلى موتها، أو إلى إلحاق ضرر محقق بها. وكل حالة من الحالات التى يتحدث فيها عن الإجهاض، لها ظروفها، ولها ملابساتها، ولها حكمها الذى يقرره أهل العلم من الفقهاء والأطباء.

وليس من الفقه السليم، ولا من العقل القويم، أن يقال: إن الإجهاض مباح إباحة مطلقة، أو ممنوع منعًا مطلقًا، وإنما لكل حالة حكمها الذى يناسبها والذى يقرره الفقهاء والأطباء، مع ملاحظة أن الأصل فى شريعة الإسلام، أن تحافظ المرأة على جنينها محافظة تامة، منذ اليوم الأول من إحساسها به، إلى يوم مولده، وإلى ما بعد يوم مولده، ولا تلجأ إلى الإجهاض إلا عند الضرورة التى يقرها الفقهاء والأطباء.

* * *

**ثانيًا: هل تنظيم الأسرة بتلك الصورة التى سبق بيانها جائز من الناحية الدينية؟**

**والجواب:** إن تنظيم الأسرة بتلك الصورة التى سبق بيانها قال بجوازه كثير من الفقهاء، ويكفى أن نسوق ما قاله فضيلة الشيخ سيد سابق فى كتابه «فقه السنة» جـ٧ ص٥٤١، فقد قال فضيلته: «تقدم أن الإسلام يرغب فى كثرة النسل، إذ إن ذلك مظهر من مظاهر القوة والمنعَة بالنسبة للأمم والشعوب، «وإنما العزة للكاثر»، ويجعل ذلك من أسباب مشروعية الزواج: «تزوجوا الولود الودود، فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة»[1]. إلا أن الإسلام مع ذلك لا يمنع فى الظروف الخاصة من تحديد النسل، باتخاذ دواء يمنع من الحمل، أو بأى وسيلة أخرى من وسائل المنع.

فيباح التحديد فى حالة ما إذا كان الرجل مُعيلًا ـ أى: كثير العيال ـ لا يستطيع القيام على تربية أبنائه التربية الصحيحة. وكذلك إذا كانت المرأة ضعيفة، أو كانت موصولة الحمل، أو كان الرجل فقيرًا.

ففى مثل هذه الحالات يباح تحديد النسل، بل إن بعض العلماء رأى أن التحديد فى هذه الحالات لا يكون مباحًا فقط بل يكون مندوبًا إليه.

وألحق الإمام الغزالى بهذه الحالات، حالة ما إذا خافت المرأة على جمالها، فمن حق الزوجين فى هذه الحالة أن يمنعا النسل. بل ذهب كثير من أهل العلم إلى إباحته مطلقًا... »

* * *

(١) رواه النسائى.

**ثالثًا: أهناك فتاوى رسمية صدرت فى موضوع تنظيم الأسرة ؟**

**والجـواب** : نعم هناك فتاوى متعددة صدرت فى هـذا الموضوع، نكتفى بإيراد واحدة منها :

فى الخامـس والعشريـن من شـهر يناير سـنة ١٩٣٧ – أى : منذ مـا يقرب من سـتين عامًـا – ورد إلى دار الإفتـاء المصرية، سـؤال هذا نصه : « رجـل رزق بولد واحد، ويخشـى إن هـو رزق أولادًا كثيرين، أن يقع فى حـرج من عدم قدرته على تربية الأولاد والعناية بهم، أو تسـوء صحة زوجته لكثرة ماتحمل وتضع، دون أن يمضى بين الحمل والحمل فترة تستريح فيها، وتسترد قوتها، فهل له أو لزوجته أن يتخذا بعض الوسـائل التى يشـير بها الأطباء، ليتجنب كثرة النسل، بحيث تطول الفترة بين الحمل، فتستريح الأم، ولا يرهق الوالد ... ؟

وقد أجاب فضيلة المرحوم الشيخ عبد المجيد سليم – مفتى الديار المصرية فى ذلك الوقـت – بقولـه : «اطلعنا على السـؤال، ونفيد بأن الذى يؤخذ مـن نصوص الفقهاء الأحناف، أنه يجوز أن تتخذ بعض الوسائل لمنع الحمل، على الوجه المبين بالسؤال ... ﷺ والفتوى بكاملها منشورة بمجموعة «الفتاوى الإسلامية» جـ ٢ ص ٤٤٥.

* * *

**رابعًا : أَمِن المصلحة أن تصدر الدولة قانونا لتنظيم الأسرة ؟**

**والجـواب** : ليس من المصلحة ذلك فى تقديرى، لأن مسـألة تنظيم الأسرة من المسائل الشخصية التى تتعلق بالزوجين وحدهما، والتى تختلف من أسرة إلى أسرة على حسب ظروفهما وأحوالهما، وما يتعلق بالزوجين لا تعالجه القوانين، وإنما خير وسـيلة لتنظيم الأسرة، فهم الدين فهمًا سـليمًا، وإشـاعة هذا الفهم بين جميع أفراد الأمـة، وإنى أرجح أن على رأس الأسـباب التى جعلت بعـض الناس يتهاون فى مسـألة تنظيـم الأسرة، هـو عدم الفهم السـليم لأحـكام الدين، ولشـئون الدنيا، والاستخفاف بالمسئولية نحو الأبناء .

* * *

**خامسًا : هل تتعارض الدعوة إلى تنظيم الأسرة مع قوله – تعالى – :**

﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾(١). أو قوله – سبحانه – :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾(٢). **أو مع قوله – عز وجل –:** ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾(٣).

أو مع قوله ﷺ : «تناكحوا تناسلوا تكثروا فإنى مباهٍ بكم الأمم يوم القيامة». رواه صاحب كشف الخفا.

**والجواب** : لا تتعارض الدعوة إلى تنظيم الأسرة، مع هذه النصوص الكريمة، متى فهمت هذه النصوص فهما دينيًّا سليمًا .

**فالدعوة إلى تنظيم الأسرة لا تتعارض مع قوله – سبحانه – :**

﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ . لأنه لم ينكر أحد من العقلاء أن المال الحلال، والذرية الصالحة، هما زينة الحياة الدنيا، إلا أن الأولاد إذا لم نحسن تربيتهم، قد يكونون فتنة، كما قال – سبحانه–: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾(٤).

**وقد يكونون أعداء كما فى قوله – سبحانه –:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ... ﴾(٥).

فالأولاد قد يكونون زينة، وقد يكونون فتنة، وقد يكونون أعداء. وتنظيم الأسرة متى صاحبته النية الطيبة، والمقاصد الشريفة، كان عونًا للإنسان على أن يكون الأولاد قرة عين للإنسان .

ولا تتعارض الدعوة إلى تنظيم الأسرة مع قوله – تعالى –:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾(٦).

لأنه ما قال عاقل إن تنظيم الأسرة قتل للأولاد، وإنما هو حماية لهم دينيًّا

---

(١) سورة الكهف : الآية ٤٦ .
(٢) سورة الإسراء : الآية ٣١ .
(٣) سورة هود : الآية ٦ .
(٤) سورة التغابن : الآية ١٥ .
(٥) سورة التغابن : الآية ١٤ .
(٦) سورة الإسراء : الآية ٣١ .

وصحيًّا ونفسيًّا واجتماعيًّا.. وهذه الآية الكريمة وما يشبهها من آيات، تنهى عن قتل الأولاد قبل ولادتهم وبعد ولادتهم، كما كان يفعل الناس فى الجاهلية مع البنات. قال -تعالى-:

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾(١). ولا يتعارض تنظيم الأسرة مع قوله - سبحانه -: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾(٢)،

لأن كل إنسان لا يكون مؤمنًا حقًّا، إلا إذا اعتقد اعتقادًا جازمًا، أن كل دابة من إنسان وحيوان وغيرهما، رزقها على الله - تعالى - وحده، ولكن ذلك لا ينافى الأخذ بالأسباب، والسعى فى سبيل الحصول على الرزق، إذ إن هذا الرزق قد جعل الله - تعالى - له وسائل، من سلكها نجح، ومن أهملها خسر، وكيف لا وهو القائل - سبحانه - فى آية أخرى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾(٣).

وفى الحديث الشريف: «**لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا وتروح بطانًا**» رواه ابن ماجه.

ومن أقوال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق، ثم يقول اللهم ارزقنى، وهو يعلم أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة».

ثم إنى بعد ذلك أتساءل فى حسرة؟ هل الناس - فى مجموعهم - يؤمنون بهذه الآية إيمانًا عمليًّا كما ينطقون بها لفظيًّا؟

والجواب: إن واقعهم العملى الذى نشاهده يخالف أقوالهم، بدليل ما تراه من وساطات سيئة، ومن إذلال للنفس من إنسان لآخر لكى يساعده فى الحصول على وظيفة لأولاده، أو يلحقهم فى كلية معينة، بأسلوب يتنافى مع العفاف ومع الكرامة الإنسانية التى تدعو الإنسان إلى أن يكون اعتماده على الله - تعالى - وحده. ولا يتعارض تنظيم الأسرة - أيضًا - : مع الحديث الشريف الذى يقول: «تناكحوا تناسلوا تكثروا ...» لأننا نرجح أن المقصود به الكثرة المؤمنة الصالحة القوية فى دينها وفى أداء ما يجب عليها ...

(١) سورة التكوير: الآيتان ٨، ٩.
(٢) سورة هود: الآية ٦.
(٣) سورة الملك: الآية ١٥.

ولقد ذم ﷺ الكثرة الضعيفة فى عقيدتها وفى سلوكها وفى أخلاقها فقال: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها، قالوا أو من قلة نحن يومئذ يارسول الله؟ قال: بل أنتم حينئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل [1]... ».

وإذًا فالكثرة الصالحة القوية مرحبًا بها، أما الكثرة الجاهلة الطائشة الضعيفة، فالقلة خير منها .

* * *

**سادسًا : هل تنظيم الأسرة يتنافى مع الإيمان بقضاء الله وقدره ؟**

**والجواب** : ما قال عاقل : إن تنظيم الأسرة بالمعنى الذى ذكرناه يتنافى مع الإيمان بقضاء الله وقدره؛ لأن تنظيم الأسرة ماهو إلا لون من مباشرة الأسباب التى أمرنا الله – تعالى – بمباشرتها لتنظيم حياتنا. وهذه الأسباب قد تنجح وقد لا تنجح، قد تتخذ المرأة وسائل منع الحمل لفترة معينة، ومع ذلك يأتى الحمل، كما أن المريض قد يذهب إلى الطبيب، فيعطيه علاجًا معينًا، ولكن هذا العلاج قد يؤدى إلى الشفاء، وقد لايؤدى إلى ذلك. ونحن مطالبون – دينيًّا وعقليًّا بمباشرة الأسباب التى شرعها الله – تعالى – لنجاحنا فى الحياة، مع إيماننا بأن ما قدره الله وقضاه لابد أن يكون، إلا أن ما قدره الله – تعالى – نحن لا نعلمه ولا نعرفه، لأن مرده إليه وحده، ورحم الله القائل :

إنما الغيب كتاب صانه ... عن عيون الخلق رب العالمين
ليس يبدو منه للناس سوى ... صفحة الحاضر حينا بعد حين

وإذًا، فتنظيم الأسرة لا يتعارض إطلاقا مع الإيمان بالقضاء والقدر، لأن ماقدره – سبحانه – نحن لا نعلمه، وإنما نحن نباشر الأسباب التى شرعها الله – تعالى – لسعادتنا، ثم بعد ذلك يسلك الله – عز وجل – بنا مايشاء

﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [2].

هذه كلمة مركزة عن مسألة تنظيم الأسرة من الناحية الدينية، وكل عنصر من عناصرها كان فى إمكانى أن أجعله فى صفحات، ولكن « حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق » .

(١) الغثاء : ما يحمله السيل من رغوة ومن فتات الأشياء ، رواه أبو داود.
(٢) سورة الأعراف: آية ٥٤.

## المناقشة

١ يدعى بعض أعداء الإسلام أن شريعة الإسلام تفرق فى المعاملة بين المسلمين وغير المسلمين. فبِمَ ترد عليهم ؟

٢ قال – تعالى – : «لا إكراه فى الدين» .. تحدد الآية الكريمة كيفية معاملة غير المسلمين فى مجال العقيدة. وضح ذلك .

٣ **ضع علامة (✓) أمام الصحيح وصوب الخطأ .**

– لايجوز للمسلم أن يأكل طعام أهل الكتاب .

– المسلم والمسلمة يجوز أن يتزوج كل منهما من أهل الكتاب .

– القاعدة الأولى فى معاملة غير المسلمين هى : أن لهم ما لنا وعليهم ما علينا.

– نهت شريعة الإسلام عن مجادلة أهل الكتاب .

٤ اختص الله – تعالى – كلًّا من الرجل والمرأة « بخصائص » ما هى ؟ وهل تفرق هذه الخصائص بينهما فى أصل الخلقة ؟

٥ سوت شريعة الإسلام بين الرجل والمرأة فى التكاليف الشرعية. ما مدى صحة هذه العبارة ؟ وضح .

٦ يدعى بعض الأدعياء بأن الإسلام ظلم المرأة فى مسألة الميراث. فبِمَ ترد عليهم؟

٧ (ا) تنظيم الأسرة – تحديد النسل .

ما الفرق بين التعبيرين ؟ وما حكم الإسلام فى كلٍّ ؟

(ب) هل يتنافى تنظيم الأسرة مع القضاء والقدر ؟ أجب مع التوضيح .

# الفصل الرابع

# حوار بين الخالق وبعض مخلوقاته

أقصد بالحوار بين الخالق – عز وجل – وبين بعض عباده: ما حكاه لنا القرآن الكريم من أن الله – تعالى – قد قال لبعض عباده أقوالًا بكيفية لا يعلمها إلا هو ـ سبحانه – وقد أجاب هؤلاء الأخيار على ما قاله خالقهم لهم بإجابات تدل على طاعتهم له – عز وجل – وعلى أدبهم السامى .

ولعله – سبحانه – عندما ساق هذه المحاورات فى كتابه الكريم، إنما أراد أن يعلمنا أدب المحاورة والمناقشة والمراجعة بأسلوب حكيم، وبمنهج قويم، يهدى إلى الرشد، ويؤدى إلى السعادة والفلاح .

حواره – جل شأنه – مع الملائكة :

ومن تلك النماذج ما وجهه – سبحانه – إلى ملائكته الكرام من أقوال وما قالوه فى الرد على خالقهم – عز وجل – كما فى قوله – تعالى – :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (١) .

(١) سورة البقرة : الآيات ٣٠ – ٣٣ .

أى قال الله – تعالى – لملائكته بكيفية لا يعلمها إلا هو، إنى جاعل فى الأرض خليفة هو آدم وذريته ، لكى يعمروا هذه الأرض، وينشروا فيها ما ينفعهم . وخطاب الله – تعالى – لملائكته بأنه سيجعل فى الأرض خليفة ، ليس المقصود به المشورة ، وإنما خاطبهم بذلك من أجل ما ترتب عليه من سؤالهم عن وجه الحكمة من هذه الخلافة ، وما أجيبوا به بعد ذلك . أو من أجل تعليم العباد المشاورة فى أمورهم قبل أن يقدموا عليها ، وعرضها على ثقاتهم وعقلائهم ، وإن كان هو – سبحانه – بعلمه وحكمته البالغة غنيًّا عن المشاورة .

وقد رد الملائكة على خالقهم بقولهم : يا ربنا أتجعل فى هذه الأرض من يفسد فيها ويريق الدماء ، والحال أننا ننزهك عما لا يليق بعظمتك؟

وقولهم هذا إنما صدر منهم على وجه استطلاع الحكمة فى خلق نوع من الكائنات، يصدر منهم الإفساد فى الأرض وسفك الدماء ، وقطعهم بحكمة الله – تعالى – فى كل ما يفعل، لا ينافى تعجبهم من بعض أفعاله؛ لأن التعجب يصدر عن خفاء سبب الفعل ..

والملائكة لا يعلمون الغيب ، فلابد أن يكونوا قد علموا ماذا سيكون من الفساد فى الأرض وسفك الدماء بوجه من الوجوه التى يطلع الله بها على الغيوب بعض الأخيار من خلقه .

قال الإمام ابن كثير : «وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله – تعالى – ولا على وجه الحسد لبنى آدم كما يتوهمه البعض ، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة فى ذلك . يقولون: يا ربنا، ما الحكمة فى خلق هؤلاء ، مع أن منهم من يفسد فى الأرض ويسفك الدماء ، فإن كان المراد عبادتك ، فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، ولا يصدر منا شىء من ذلك ، فهلا وقع الاقتصار علينا»؟[1] .

وقد رد الله – تعالى – عليهم بما يوقفهم عند حدود الأدب الكامل واللائق بمقام الخالق – عز وجل – فقال لهم : إنى أعلم ما لا تعلمونه أنتم من شئون خلقى ، ومن عجائب ملكوتى ..

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٦٩ .

ثم أخذ – سبحانه – فى بيان جانب من حكمة خلق آدم وجعله خليفة فى الأرض، و بعد أن أجاب الملائكة عن سؤالهم بالجواب الحكيم المناسب ، فقد علَّم – سبحانه – آدم أسماء الأشياء كلها ، ثم عرض هذه المسميات على الملائكة، فقال لهم على سبيل التعجيز : أخبرونى بأسماء هذه الكائنات ، إن كنتم صادقين فيما دار فى خواطركم من أنى لا أخلق خلقا إلا وأنتم أعلم منه وأفضل ؟

فما كان من الملائكة بعد هذه المحاورة الحكيمة إلا أن ردوا على خالقهم – عز وجل – بقولهم : جل شأنك يا ربنا ، فنحن لا علم لنا بشىء سوى ما تعلِّمُنا إياه ، فأنت وحدك العليم بكل شىء ، الحكيم فى خلقك وأمرك .

ومن الفوائد التى تؤخذ من هذه المحاورة التى دارت بين الخالق – عز وجل – وبين ملائكته الكرام أنه – سبحانه – قد أفسح المجال أمام الملائكة لكى يعبروا عن رأيهم أنه – سبحانه – قد أرشدهم بأسلوب مهذب حكيم إلى ما يجب عليهم الوقوف عنده.

وهكذا يتعلم العقلاء من هذه المحاورة أن الرئيس عليه أن يفسح المجال لمرءوسيه المخلصين ، لكى يناقشوه فيما خفى عليهم من أمور ، وإذا تجاوزوا حدود الأدب اللائق معه ، راعى فى عتابهم ما عرفه فيهم من سلامة القلب ، ومن تلقى أوامره بحسن الطاعة، وأن محبتهم وإخلاصهم له لا يتعارض مع استطلاع الحكمة عن بعض ما صدر عنه من أقوال أو أفعال .

### حواره - جل شأنه - مع رسله :

ومن الأدب السامى فى الحوار ما حكاه القرآن الكريم من أن الله – تعالى – يسأل رسله الكرام يوم القيامة – وهو العليم بكل شىء – فيقول لهم : ماذا كان جواب أقوامكم لكم عندما دعوتموهم إلى إخلاص العبادة لى وحدى؟

واستمع إلى القرآن الكريم وهو يقص علينا ذلك بأسلوبه البليغ الحكيم فيقول:

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾(١) .

(١) سورة المائدة : الآية ١٠٩ .

وخص - سبحانه - الرسل وحدهم بالذكر مع أنهم وغيرهم سيُجمعون للحساب يوم القيامة ، لإظهار شرفهم ، وللإيذان بعدم الحاجة إلى التصريح بجمع غيرهم من الأقوام ، لأن هؤلاء الأقوام إنما هم تبع لهم .

وقال - سبحانه - «ماذا أُجِبتم» ولم يقل - مثلا- : هل بَلَّغتم رسالتى أم لا؟ للإشعار بأن الرسل الكرام قد بلغوا الرسالة التى كلفهم بها خالقهم على أكمل وجه، وأن الذين خالفوهم من أقوامهم سيتحملون وزر مخالفتهم يوم القيامة.

وقوله - تعالى - : ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ حكاية لإجابة الرسل.

وقد نفوا عن أنفسهم العلم مع أن عندهم بعض العلم لتأدبهم مع الخالق - عز وجل - فكأنهم يقولون : لا علم لنا يذكر بجانب علمك المحيط بكل شىء، ونحن وإن كنا قد عرفنا ما أجابنا به أقوامنا ، إلا أن معرفتنا هذه لا تتعدى الظواهر ، أما علمك أنت يا ربنا فشامل للظواهر والبواطن، وأنت وحدك الذى تحكم بيننا وبينهم ، بمقتضى علمك المحيط بكل شىء ، وعدلك الذى لا يحوم حوله ظلم أو خطأ .

مع إبراهيم - عليه السلام - :

وإليك محاورة دارت بين إبراهيم - عليه السلام - وبين خالقه - سبحانه - وهى تدل على كمال قدرة الله - تعالى - وعلى محبته إبراهيم - عليه السلام - للوصول إلى أعمق درجات الإيمان ، وقد حكى القرآن هذه المحاورة فى قوله - تعالى -:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

(١) سورة البقرة : الآية ٢٦٠ .

وقد ذكر المفسرون لسؤال إبراهيم – هذا – ربه أسبابًا منها : أنه لما قال للنمرود «ربى الذى يحيى ويميت» ، أحب أن يترقى بأن يرى ذلك مشاهدة .

ففى قوله «ربِّ» تصريح بكمال أدبه مع خالقه ، فهو قبل أن يسأله يستعطفه ويعترف له بالربوبية الحقة ، وبالألوهية التامة ..

وقد رد الله – تعالى – على طلب إبراهيم بقوله : أتقول ذلك وتطلبه وكأنك لم تؤمن إيمانًا تامًّا بأنى قادر على إحياء الموتى وعلى فعل كل شىء ؟

وهنا يجيب إبراهيم عن سؤال ربه فيقول : بلى يارب إنى أومن بوحدانيتك وقدرتك إيمانًا صادقًا تامًّا ، ولكنى سألت هذا السؤال ليزداد قلبى سكونًا واطمئنانًا وإذعانًا ، لأن من شأن المشاهدة أن تغرس فى القلب إيمانًا أقوى ، واطمئنانًا أشد ، وأنا أريد أن أنتقل من مرتبة علم اليقين إلى عين اليقين ، ومن درجة البرهان إلى درجة العيان[1] . ثم حكى القرآن بعد ذلك ما كان من جواب الخالق – عز وجل – على نبيه إبراهيم فقال :

﴿ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ﴾ أى: فاضممهن إليك لتتأملهن وتعرف أشكالهن لئلا تلتبس عليك بعد الإحياء ، ثم اذبحهن وقطعهن قطعًا ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾.

ثم بعد ذلك نادهن وقل لهن تعالين بإذن الله ، يأتينك إتيانًا سريعًا وقد عادت إليهن الحياة كما كان حالهن قبل الذبح ، واعلم أن الله – تعالى – غالب على أمره ، حكيم فى كل شئونه وأفعاله .

فالمقصود من هذه المحاورة : إظهار أكمل الأدلة على قدرة الله – تعالى – ووحدانيته ، وبيان أنه – سبحانه – يجيب سؤال الأخيار ليزدادوا إيمانًا على إيمانهم، ويفتح بابه أمامهم لكى يسألوا عما يريدون السؤال عنه ، ويتقبل مطالبهم بحلم عظيم ، وفضل كبير .

(١) العيان : المشاهدة .

## المناقشة

١ قال تعالى فى سورة البقرة : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

(ا) تخير الإجابة الصحيحة مما بين القوسين فيما يأتى :

- المقصود بقوله - تعالى - «خليفة» : ( الرسول - آدم - آدم وذريته) .
- مهمة « خليفة الله فى الأرض»: (حكم البشر - عمارة الأرض - تلقى الأوامر).
- قول الملائكة «أتجعل فيها من يفسد فيها»: (اعتراض على الله تعالى - حسد لبنى آدم - استكشاف الحكمة ).

(ب) ما الفوائد التى تؤخذ من هذه المحاورة ؟

٢ لماذا سأل إبراهيم - عليه السلام - ربه أن يريه كيفية إحياء الموتى ؟

٣ اذكر ما أجابه الخالق - سبحانه - ليقوم به إبراهيم عمليًّا .

٤ حاور إبراهيم ربه فى كيفية إحيائه الموتى كما جاء فى سورة البقرة .

اكتب الآيات الدالة على ذلك .

٥ فى المحاورات التى تمت بين الخالق - سبحانه وتعالى - وبين ملائكته وبعض رسله دروس عظيمة. اذكرها مبينًا كيف يستفيد المسلم منها فى العصر الحاضر.



طبعة ٢٠١٨ / ٢٠١٩م

# الفصل الخامس

# حـوار بين الرسـل وأقوامهم

المحـاورات التى حدثت بين الرسـل الكرام وبـين أقوامهم ، وردت فى القرآن الكريـم فى مئـات الآيات ، وفى عشرات المواضع ، ولـو أردنا أن نحصيها إحصاء دقيقًا لاحتجنا إلى مؤلف خاص، لذا فسنكتفى بنماذج منها تعطينا صورة واضحة لما دار بينهم من أقوال ومجادلات ...

من المحاورات التى دارت بين الرسل وبين أقوامهم قوله – تعالى – :

﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۡۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾(١) .

لقد أرسـل الله – تعالى – على أهل هذه القرية رسـولين فكذبوهما ، وأعرضوا عن دعوتهما ، فأرسـل الله – تعالى – مع الرسـولين رسـولًا ثالثًا ليشـد من أزرهما وليعاونهـما على تبليـغ كلمة الحق ، وأذعن الثلاثة لأمر ربهـم فقالوا لأهل القرية: إنا إليكم مرسـلون لا إلى غيركم، فأطيعونـا فيما ندعوكم إليه من إخلاص العبادة لله – تعالى – وحده ، ومن وجوب التحلى بمكارم الأخلاق .

ولكن أهل القرية قالوا للرسل على سبيل الإنكار والتطاول : أنتم لستم إلا بشرًا مثلنا فى البشرية ، ولا مزية لكم علينا . وكأن البشرية فى زعمهم تتنافى مع الرسالة والنبوة ..

(١) سورة يس : الآيات ١٣ – ١٩ .

ثم أضافوا إلى ذلك قولهم : وما أنزل الرحمن من شيء عليكم - أيها الرسل - وما أنتم إلا كاذبون فيما تدَّعون من أنكم رسل إلينا .

وهكذا قابل أهل القرية رسل الله بالإعراض عن دعوتهم ، وبالتطاول عليهم، وبالإنكار لما جاءوا به ، وبوصفهم بالكذب فيما يقولونه .

ولكن الرسل الكرام قابلوا هذه السفاهات بالأناة والصبر شأن الواثق من صدقه ، فقالوا لأهل القرية : ربنا وحده يعلم إنا إليكم لمرسلون ، وكفى بعلمه علمًا وبحكمه حكمًا، وما علينا بعد ذلك بالنسبة لكم إلا أن نبلغكم ما كلفنا بتبليغه إليكم تبليغًا واضحًا لا غموض فيه ولا التباس .

فأنت ترى أن الرسل لم يقابلوا سفاهة أهل القرية بمثلها ، وإنما قابلوا تكذيبهم لهم بالمنطق الرصين ، وبالجواب السليم ، وبالحوار العاقل الكريم .

ولكن أهل القرية لم يقتنعوا بهذا المنطق السليم ، بل ردوا على الرسل ردًّا أقبح من سابقه ، حيث قالوا لهم : إنا تشاءمنا بكم وأصابنا الضر عندما رأينا وجوهكم، ولئن لم تتركونا وشأننا ، وترحلوا عنا ، لنرجمنكم بالحجارة ، وليمسنكم منا عذاب شديد الألم ...

ولكن الرسل الكرام قابلوا هذا التهديد - أيضًا - بالثبات وبالرد الشجاع الحكيم فقالوا لهم : ليس الأمر كما ذكرتم من أن وجودنا معكم هو سبب شؤمكم، بل الحق أن شؤمكم معكم ومن عند أنفسكم ، لأنكم قوم عادتكم ودأبكم الإسراف فى الكفر والفسوق والعصيان .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن أهل هذه القرية جاءهم واحد منهم ينصحهم بأن يتبعوا الرسل وأن يطيعوهم ، فلم يلتفتوا إليه ، بل قتلوه ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .

ومن العبر والعظات التى نأخذها من هذه الآيات ، أن العقلاء يسلكون فى حوارهم مع غيرهم الأسلوب الحكيم ، والأدب الرفيع، والصبر الجميل ، والرد المقنع ، والثبات على الحق ، والتوجيه السليم ... أما السفهاء والجهلاء فسلاحهم فى حوارهم وجدالهم : الغرور الفاضح ، والغباء الواضح ، والمنطق السيئ ، والتهديد السافر لمن يخالفهم ، وعاقبتهم الخسران والبوار .

## بين هود - عليه السلام - وقومه :

وننتقل الآن إلى محاورات أخرى حدثت بين «هود» - عليه السلام - وبين قومه الذين كانوا يعبدون الأصنام ، وكانوا معروفين بالغنى والقوة فى الجسم .

لقد أمرهم بعبادة الله وحده ، ونبذ عبادة الأصنام فبماذا أجابوه ؟ استمع إلى ما قاله طغاة قومه له - كما حكاه القرآن الكريم -:

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾(١).

أى : قال أصحاب الجاه والسلطان من قوم هود له على سبيل التطاول وسوء الأدب : يا هود إنا لنراك قد تمكنت صفة خفة العقل منك، لأنك قد تركت دين الآباء وجئتنا بدين جديد ننكره ولا نقبله، وإنا لنعتقد أنك من الكاذبين. هكذا كان رد قوم هود عليه عندما قال لهم : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، وقد قابل هذا الرد القبيح بالمنطق الحكيم ، وبالدفاع عن نفسه بأسلوب يقوم على الحجة والبرهان فماذا قال لهم؟

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾(٢) .

فأنت ترى أن هودا عليه السلام فى هذا الرد الحكيم على قومه قد نفى عن نفسه تهمة السفاهة ، ثم بين لهم وظيفته وطبيعة رسالته ، ثم أخبرهم بعد ذلك بأنه بمقتضى أخوته لهم ليس معقولا أن يكذب عليهم أو يخدعهم، وإنما هو ناصح أمين يرشدهم إلى ما ينفعهم، ثم أخذ فى تذكيرهم بواقعهم ، وبنعم الله عليهم ، وأمرهم بشكر هذه النعم لكى يزيدهم خالقهم منها ...

(١) سورة الأعراف : الآية ٦٦ .

(٢) سورة الأعراف : الآيات ٦٧ - ٦٩ .

ولكن الطغاة من قومه عموا وصموا عن هذه النصائح وقالوا له بغرور وطغيان:

﴿..أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾(١).

وهكذا أنهوا حوارهم معه بالتحدى والتهديد والاستهزاء به وبنصائحه.

وفى موضع آخر نراه يبدأ حديثه معهم بأمرهم بإخلاص العبادة لله - تعالى - وحده، وبإخبارهم بأنه لا يريد أجرًا على دعوته، وبإرشادهم إلى أن استغفارهم لخالقهم وتوبتهم إليه ستزيدهم غنى على غناهم، وقوة إلى قوتهم. واستمع إلى الآيات القرآنية وهى تقص علينا ذلك فتقول:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِى ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾(٢).

لقد كان المنتظر من قومه لو كانوا يعقلون، أن يستمعوا إليه بعد أن ناداهم ثلاث مرات وبعد أن بشرهم وأنذرهم، ولكنهم قابلوا هذه الإرشادات السامية بالتطاول عليه، وبالسخرية منه، فماذا قالوا؟

﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ ...﴾(٣).

أى: قالوا لنبيهم ومرشدهم: أنت - أولًا - لم تأتنا بحجة مقنعة ترضى نفوسنا. ونحن - ثانيًا - لن نترك عبادة آلهتنا التى كان يعبدها آباؤنا بسبب قولك الخالى من الدليل.

(١) سورة الأعراف: الآية ٧٠. (٢) سورة هود: الآيات ٥٠ - ٥٢. (٣) سورة هود: الآيتان ٥٣، ٥٤.

ونحن – ثالثًا – نصر على مخالفتك لأنك عندنا من الكاذبين .

ونحن – رابعًا – نعتقد أن تركك لعبادة آلهتنا ، جعل بعضها – لا كلها – يتسلط عليك فيصيبك بالجنون والهذيان ، ولم يقولوا أصابتك آلهتنا بسوء ، بل قالوا – كما حكى القرآن عنهم – : ﴿ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا ﴾ تهديدًا له ، وإشارة إلى أنه لو تصدت له جميع الآلهة لأهلكته إهلاكًا سريعًا .

وهكذا نراهم قد ردوا على نبيهم ومرشدهم بأربعة ردود ، تساقطوا فيها من السيئ إلى الأسوأ ومن القبيح إلى الأقبح ، مما يدل على طغيانهم وفجورهم .

فماذا كان موقفه منهم ؟ كان موقفه منهم موقف المتبرئ من شركهم ، والمتحدى لطغيانهم ، والمعتمد على الله – تعالى – وحده فى الانتصار عليهم ، ولقد حكى القرآن رده عليهم فقال :

﴿...قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٞ ﴿٥٧﴾﴾(١) .

أى : قال هود – عليه السلام – فى رده على الطغاة من قومه : إنى أشهد الله الذى لا رب سواه ، وأشهدكم – أيضًا – على براءتى من كل عبادة لأحد سواه.

ثم ينتقل من براءته من شركهم إلى تحديهم بثقة واطمئنان فيقول لهم : وهأنذا أمامكم، فانضموا إلى آلهتكم المزعومة ، فحاربونى جميعًا فإنى لا أعبأ بكم ولا بأصنامكم .

(١) سورة هود : الآيات ٥٤ – ٥٧ .

ثم ينتقل بعد ذلك إلى بيان أن السبب فى استخفافه بهم وبآلهتهم ، أنه فوض أمره إلى الله – تعالى – الذى ما من دابة تدب على وجه الأرض إلا هو مالكها والمتصرف فيها .

ثم يختتم حواره معهم ورده عليهم بتحذيرهم من سوء عاقبة غرورهم وإصرارهم على كفرهم ، فبين لهم أن هذا الإصرار سيؤدى إلى هلاكهم ، وإلى مجىء قوم آخرين سيخلفونهم ، ولن يتغير هذا الكون بسبب هلاكهم ، فهم أحقر من أن يغيروا سنة من سنن الله فى خلقه .

والمتأمل فى المحاورات التى دارت بين هود – عليه السلام – وبين قومه، يراها زاخرة بالحجج الباهرة، وبالجرأة النادرة، وبالنصائح البليغة، وبالوضوح والصراحة من جانب هود وهو يجابه قومه بما هم عليه من قوة وغرور وبسطة فى الرزق .

## بين إبراهيم - عليه السلام - وأبيه :

ولننتقل بعد ذلك إلى نموذج آخر من المحاورات التى دارت بين بعض الأنبياء وبين أقوامهم .

وهذا النموذج نأخذه من قصة إبراهيم – عليه السلام – مع أبيه، ومنه نرى كيف أن إبراهيم – عليه السلام – قد استعمل فى حواره مع أبيه وقومه أحكم الأساليب وأرقها وأوضحها فى إحقاق الحق وفى إبطال الباطل .

وقد حكى القرآن ما قاله سيدنا إبراهيم لأبيه، وما رد به الأب على ابنه فقال

-عز وجل-: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ

عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾(١)

والمعنى : واذكر – أيها الرسول الكريم – لأمتك جانبًا من ذلك الحوار الحكيم الذى استعمله أبو الأنبياء إبراهيم – عليه السلام – مع أبيه وهو يدعوه إلى إخلاص العبادة لله الواحد القهار .

اذكر ذلك لهم لكى يعتبروا ويتعظوا ، ويقتدوا بالأخيار فى أقوالهم وفى أفعالهم وفى خطابهم مع غيرهم، وفى دعوتهم إلى الخير والبر بالحكمة والموعظة الحسنة.

لقد قال إبراهيم لأبيه وهو يحاوره: يا أبت لماذا تعبد شيئًا لا يسمع من يناديه ولا يبصر من يقف أمامه، ولا يغنى عنك شيئًا من الإغناء ، لأنه لا يملك لنفسه – فضلًا عن غيره – نفعًا ولا ضرًّا .

ثم دعاه إلى اعتناق الحق بألطف أسلوب فقال له: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ النافع الذى علمنى الله إياه ﴿مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ أنت ، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء ﴿فَٱتَّبِعْنِيٓ﴾ فيما أدعو إليه ﴿أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ أى : أهدك إلى الطريق المستقيم الذى لا عوج فيه ولا اضطراب .

ثم نهاه عن عبادة الشيطان ، لأنه جهل وانحطاط فى التفكير فقال له: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ فإن عبادتك لهذه الأصنام هى عبادة وطاعة للشيطان الذى هو عدو الإنسان.

ثم علل هذ النهى بقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ أى : إن الشيطان الذى أغراك بعبادة هذه الأصنام كان للرحمن عصيًّا ، أى : كثير العصيان ، لا يهدى الناس إلى طاعة الله، وإنما يهديهم إلى مخالفته ومعصيته وموجبات غضبه.

(١) سورة مريم : الآيات ٤١ – ٤٧.

ثم ختم هذا النداء بما يدل على حبه له ، وشفقته عليه فقال :

﴿ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَـٰنِ وَلِيّٗا ﴾.

أى : يـا أبـت إنى أشـفق عليـك من أن ينـزل بك عـذاب من الرحمن بسـبب إصرارك على عبادة غيره ، وبذلك تصبح قرينًا للشيطان فى العذاب بالنار ، لأنك انقدت له، وخالفت طريق الحق .

بهذا الأسلوب الحكيم الهادئ الرقيق وبهذا الحوار الحكيم ... خاطب إبراهيم أباه ، وهو يدعوه إلى عبادته – تعالى – وحده .

ورحم الله صاحب الكشـاف فقد قال ما ملخصه : «انظر كيف رتب إبراهيم الكلام مع أبيه فى أحسـن اتسـاق ، وسـاقه أرشـق مساق ، مع اسـتعماله المجاملة واللطف والرفق واللين والأدب الجميل والخلق الحسن .

وذلـك أنـه طلب منـه – أولاً – العلة فى خطئه . طلب مُنَبـهٍ على تماديه ، موقظٍ لإفراطه وتناهيه ... حيث عبد ما ليس به حس ولا شعور.

ثم ثنى بدعوته إلى الحق مترفقًا به متلطفًا ، فلم يصف أباه بالجهل المفرط ، ولا نفسـه بالعلم الفائق . ولكنه قال : إن معى طائفة من العلم وشـيئًا منه ليس معك .. ثم ثلث بتثبيطه ونهيه عما كان عليه ، بتصويره بصورة يستنكرها كل عاقل .. ثم ربَّع بتخويفه سوء العاقبة ، وما يجره ما هو فيه من الوبال .

ولم يخـلُ ذلك من حسـن الأدب ، حيث لم يصرح بـأن العقاب لاحقٌ له ، وأن العذاب لاصق به ، ولكنه قال : ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ ... ﴾ .

وصـدر كل نصيحـة مـن النصائـح الأربـع بقولـه : ﴿ يَـٰٓأَبَتِ ﴾ توسـلًا واستعطافاً...»[1] .

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٩ .

ولكـن هذه النصائـح الحكيمة الغالية من إبراهيم لأبيه. لم تصادف أذنًا واعية، ولم تحـظَ من أبيه بالقبول بل قوبلت بالاسـتنكار والتهديد ، فقد قال الأب الكافر لابنه المؤمن :

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾.

والاسـتفهام فى قولـه : ﴿أَرَاغِبٌ﴾ للإنـكار والتهديد، والرغبة عن الشـىء: تركه عمدًا زهدا فيه لعدم الحاجة إليه.

والمعنى : قـال والـد إبراهيـم له على سـبيل التهديد والوعيـد ، أتـارك أنـت يا إبراهيم عبادة آلهتى . وكاره لتقرب الناس إليها ، ومنفرهم منها، لئن لم تنته عن هذا المسـلك . ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ﴾ بالحجارة وبالـكلام القبيح ﴿وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ بأن تغرب عن وجهى زمنًا طويلًا لا أحب أن أراك فيه.

وهكـذا قابـل الأب الكافـر أدب ابنـه المؤمن ، بالفظاظـة والغلظـة والتهديد والعناد والجهالة .. شأن القلب الذى أفسده الكفر .

ولكن إبراهيم – عليه السلام – لم يقابل فظاظة أبيه وتهديده بالغضب والضيق، بل قابل ذلك بسعة الصدر . وجميل المنطق ، حيث قال له :

﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾.

أى : لـك منـى – يـا أبـت – السـلام الـذى لا يخـالطـه جـــدال أو أذى ، والـــوداع الذى أقابل فيه إسـاءتك إلىَّ بالإحسـان إليك . وفضلاً عن ذلك فإنى ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ أى: بارًّا بى ، كثير الإحسان إلىَّ.

يقال : فلان حفى بفلان حفاوة ، إذا بالغ فى إكرامه ، واهتم بشأنه .

وقد وفى إبراهيم بوعده ، حيث استمر على استغفاره لأبيه إلى أن تبين له أنه عدو لله – تعالى – فتبرأ منه كما قال – تعالى – :

﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾(١).

وهكذا نرى فى هذه المحاورة التى دارت بين إبراهيم وأبيه ، أسمى ألوان العقل الراجح من إبراهيم ، وأحط ألوان الفظاظة والجهل من أبيه .

## بين محمد ﷺ وقومه :

ونحب أن نختم حديثنا عن هذا النوع من المحاورات ، بذكر جانب من الشبهات التى أثارها المشركون حول الرسول ﷺ وحول رسالته ، وكيف لقن الله – تعالى – رسوله ﷺ الحجة البالغة التى قذفها فى وجه باطل المكذبين فإذا هو زاهق .

لقد قال الكافرون عن النبى ﷺ إنه ساحر كذاب ، وتعجبوا أن كان هذا الرسول ﷺ واحدًا منهم ، وحكى القرآن ذلك فى آيات متعددة ، كما حكى الرد الذى يخرس ألسنتهم ، ويمحو شبهاتهم كما فى قوله – تعالى – :

﴿ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۖ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى

(١) سورة التوبة : الآية ١١٤ . – أواه : كثير التأوه بقول (آه) خوفًا من الله.

بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ (١).

من خلال الآيات الكريمة نرى: أن مشركى مكة تعجبوا من مجىء منذر منهم ينذرهم بسوء عاقبة الشرك ، ويأمرهم بعبادة الله - تعالى - وحده ، وقال هؤلاء الكافرون عندما دعاهم رسول الله ﷺ إلى الدين الحق: هذا الرسول ساحر لأنه يأتينا بخوارق لم نألفها ، وكذاب فيما يسنده إلى الله - تعالى - من أنه - عز وجل- أرسله إلينا .

ثم أضافوا إلى هذا القول الباطل بأسلوب الاستفهام الإنكارى ، أقوالًا أخرى لا تقل عن غيرها فى الفساد والبطلان فقالوا : أجعل محمد ﷺ الآلهة المتعددة إلهًا واحدًا ، إن هذا الذى طلبه منا ودعانا إليه لشىء قد بلغ النهاية فى العجب والغرابة ومجاوزة ما يقبله العقل . ولم يكتفوا بهذا الكلام الفاسد ، بل انطلق زعماؤهم يقولون لدهمائهم(٢): أن امشوا فى طريقكم التى كان عليها آباؤكم واصبروا على عبادة آلهتكم مهما سخر منها محمد ﷺ ، فإن هذا الذى يدعونا إليه هذا الرجل من عبادة إله واحد ، لشىء يراد من جهته هو ، وهو مصمم عليه كل التصميم ، ونحن من جانبنا يجب أن نقابل تصميمه بتصميم آخر من جانبنا وهو أن نستمر على عبادة آلهتنا.

ثم أرادوا أن يقنعوا أنفسهم وغيرهم بأن ما أتى به الرسول ﷺ هو شىء شاذ، فقالوا : ما سمعنا بهذا الذى يدعونا إليه محمد ﷺ فى ملة العرب التى كان

(١) سورة ص : الآيات ٤ - ١١.

(٢) دهمائهم : عامَّتهم.

عليها آباؤنا ولا فى الملة الأخرى التى كان عليها أهل الكتاب ، ولا فى الملة التى تكون فى آخر الزمان ، والتى حدثنا عنها الكهان ، وإن ما يقوله محمد ﷺ هو نوع من الاختلاق والافتراء لكلام يقوله من عند نفسه ، دون أن يسبقه إليه أحد.

ثم صرحوا فى النهاية بالسبب الحقيقى الذى حملهم على الإصرار على الكفر، ألا وهو الحقد والحسد، وإنكار أن يختص الله - تعالى - رسوله محمدًا ﷺ من بينهم بالرسالة ، فقالوا فى استنكار وتهكم : كيف يدعى محمد ﷺ أنه قد أنزل عليه القرآن من بيننا، مع أننا نحن السادة الأغنياء وهو الفقير اليتيم ؟ إننا ننكر دعواه كل الإنكار.

بهذه المزاعم الفاسدة وجه المشركون كلامهم إلى النبى ﷺ فوصفوه بأنه ساحر وبأنه كذاب وبأنه يقول كلامًا من عند نفسه، وبأنه ليس أهلاً لأن يكون رسولاً.

فبماذا رد القرآن الكريم عليهم؟ لقد رد القرآن عليهم بأسلوب فيه الإضراب عن كلامهم، وفيه التهوين من شأنهم، وفيه التسلية للرسول ﷺ ، وفيه ما يقنع العقول السليمة بصدق الرسول ﷺ فيما يبلغه عن ربه ، وبكذبهم فيما قالوه وتفوهوا به .

وكان هذا الرد يتضمن أن هؤلاء المشركين لم يقطعوا برأى فى شأنك - أيها الرسول الكريم - وفى شأن ما جئتهم به، ولم يستندوا فى حوارهم معك إلى دليل أو ما يشبه الدليل، فهم تارة يصفونك بالسحر، وتارة يصفونك بأنك تقول ما تقول من عند نفسك.

فلا يحزنك قولهم - أيها الرسول الكريم - فإنهم ما فعلوا ذلك إلا لأنهم لم يذوقوا عذابى بعد، فإذا ذاقوه أيقنوا بأنك على الحق وهم على الباطل.

واعلم أن هؤلاء المشركين ليست عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب، حتى يعطوا منها من يشاءون، ويمنعوها عمن يشاءون، ويتخيروا للنبوة والرسالة من يشتهون، وإنما المالك لكل ذلك هو ربك الذى لا يغلبه غالب، والذى عطاؤه لخلقه لا يعد ولا يحصى.

وأيضًا هؤلاء المشركون ليسوا بمالكين لشيء من السماوات أو من الأرض أو مما بينهما، وإنما المالك لهذا الكون هو خالقه وهو الله رب العالمين، ولو كان لهم شيء من ذلك فليصعدوا فى الطرق التى توصلهم إلى ما نملكه حتى يستولوا عليه، ويدبروا أمره، وينزلوا الوحى على من يختارونه للنبوة من زعمائهم وأغنيائهم ..

واعلم - أيها الرسول الكريم - أن هؤلاء المشركين أعجز وأهون ممن سبقهم من الأمم التى كذبت أنبياءها، وما دام الأمر كذلك فلا تهتم بأمرهم، ولا تكترث بجموعهم، فهم - سواء أكانوا قلة أم كثرة - لا قيمة لهم بجانب قوتنا، ومهما تحزبوا عليك فهم جند مهزومون ومغلوبون أمام قوة المؤمنين، فامض فى طريقك فالنصر والفوز فى النهاية لك ولأتباعك.

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد حكت ما تفوه به المشركون من أكاذيب حول الرسول ﷺ وحول دعوته، وردت عليها بالنطق الرصين، وبالحجة البالغة، وبالأدلة الواضحة على صدق النبى ﷺ وعلى كذبهم فيما قالوه وزعموه.

وفى موضع آخر يذكر القرآن الكريم جانبًا من المقترحات المتعنتة التى اقترحها المشركون، ويرد عليها ردًّا حكيمًا يخرس ألسنتهم، كما فى قوله - تعالى - :

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾[1] .

فقد قال الكافرون للنبى ﷺ على سبيل التعنت والعناد : هلاّ كان معك ملك من الملائكة يشهد بصدقك ، ونسمع كلامه ونرى هيئته وفى هذه الحالة قد نؤمن بك . فهم لا يريدون ملكًا لا يرونه وإنما يريدون ملكًا يمشى معه ويشاهدونه بأعينهم .

(١) سورة الأنعام : الآيتان ٨ ، ٩ .

وقد ردَّ اللهُ – تعالى – على قولهم هذا بردين حكيمين : أما الرد الأول فيتمثل فى قوله – تعالى – : ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾.

أى : ولو أنزلنا معك ملكًا كما اقترحوا وبقوا على ما هم عليه من الكفر لقضى الأمر بهلاكهم ثم لا يمهلون ولا يؤخرون ، فقد مضت سنة الله فيمن قبلهم أنهم كانوا إذا اقترحوا آية فأعطوها ولم يؤمنوا بها، أهلكهم الله – تعالى – بسبب إصرارهم على جحودهم .

وأما الرد الثانى فيتمثل فى قوله – سبحانه – :

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾.

أى : ولو جعلنا الرسول من الملائكة – كما اقترحوا – لكانت الحكمة تقضى أن نجعله فى صورة بشر ليتمكنوا من رؤيته ومن سماع كلامه ، وفى هذه الحالة سيقولون لهذا الملك المرسل إليهم فى صورة بشر ؛ سيقولون له لست ملكًا ، لأنهم لا يدركون منه إلا صورته وصفاته البشرية التى تمثل بها ، وحينئذ يقعون فى نفس اللبس والاشتباه الذى يلبسون على أنفسهم باستنكار جعل الرسول بشرًا.

وبهذين الجوابين الحكيمين يكون القرآن قد دحض شبهات أولئك الجاحدين، وبين لهم أن العقل السليم يحكم بأن الرسول يجب أن يكون بشرًا من جنس المرسل إليهم ، كما قال – تعالى – :

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾﴾[1].

وفى موضع آخر نرى المشركين يقولون للنبى ﷺ : لن نؤمن لك يا محمد حتى ينزل علينا الوحى كما ينزل عليك . ويرد القرآن عليهم مبينًا لهم أن النبوة هبة يهبها الله لمن يشاء من عباده ، وأن الوحى لا ينزل إلا على الأنبياء الذين اصطفاهم الله – سبحانه – لحمل رسالته وتبليغ دعوته.

(١) سورة الأنبياء : الآية ٧ .

قال – تعالى – :

﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾(١) .

والله وحده أعلم منهم ومن كل أحد بالموضع الصالح لحمل الرسالة فيضعها فيه ، فهو – سبحانه – يختار لها بحكمته وعلمه من يستحقها وينهض بها ويهب نفسه لها وينسى فى سبيلها ذاته.

ثم بين – سبحانه – سوء عاقبة هؤلاء الماكرين الحاسدين فقال : سيصيب الذين أجرموا بعد تكبرهم وغرورهم وتطاولهم ذل عظيم وهوان شديد ثابت لهم عند الله فى الدنيا والآخرة ، بسبب مكرهم المستمر ، وبسبب عدائهم الدائم لرسل الله – تعالى – ولأوليائه.

ثم حكى – سبحانه – مقولة أخرى من مقولاتهم الفاسدة ، وهى أن هؤلاء الكافرين لم يكتفوا بقولهم السابق فى شأن القرآن الذى هو المعجزة الكبرى الخالدة للرسول ﷺ ، بل أضافوا على ذلك قولاً آخر أشد شناعة وقبحًا ؛ وهو زعمهم أن هذا القرآن أكاذيب الأولين وخرافاتهم ، وأن الرسول ﷺ قد أمر غيره بكتابتها من صحف الأولين ، فهى تلقى عليه بعد اكتتابها ليحفظها ويقرأها على أصحابه فى الصباح والمساء.

وقد أمر الله – تعالى – رسوله ﷺ أن يرد عليهم بما يكبتهم فقال : قل – أيها الرسول الكريم – لهؤلاء الكافرين : كذبتم أشنع الكذب وأقبحه ، فأنتم أول من يعلم بأن هذا القرآن له من الحلاوة والطلاوة والبلاغة وقوة التأثير ما يشهد بأنه ليس من كلام البشر.

وفى موضع آخر نرى محاورات المشركين مع النبى ﷺ تدور حول ما يتعلق بأمنهم وسلامتهم ، فيقولون له ﷺ : إن اتباعنا لك وإيماننا بك سيترتب عليه

(١) سورة الأنعام : الآية ١٢٤ .

أن تتخطفنا العرب ، وأن تطردنا من أرضنا . واستمع إلى القرآن الكريم وهو يصور ذلك بأسلوبه البليغ فيقول :

﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾(١) .

وقد رد الله – تعالى – عليهم ردًّا ملزمًا حيث قال لهم فى أسلوب استنكارى: كيف يقولون ذلك والحال أننا جعلنا لهم حرمًا آمنًا يعيشون من حوله ، وتأتيهم خيرات الأرض من كل مكان ، وقد فعلنا ذلك معهم وهم مشركون ، فكيف نعرضهم للعدوان عليهم وهم مؤمنون ؟

***

هذه نماذج من محاورات الرسل مع أقوامهم . ومن الآداب التى نأخذها منها: أن الرسل الكرام بنوا محاوراتهم مع أقوامهم على المنطق السليم ، وعلى الأدب الرفيع ، وعلى الحجة الباهرة ، وعلى الصبر الجميل ، وعلى الصراحة فى القول ، وعلى حب الخير لمن يخاطبونهم ، وعلى الحرص التام على أن يبلغوا رسالات الله إلى أقوامهم دون أن يخشوا أحدًا سوى خالقهم –عز وجل–.

أما أقوامهم فقد كانت محاوراتهم لرسلهم تقوم على السفاهة والتطاول والكذب والاستخفاف برسلهم ، ووصفهم بأقبح الصفات وأسوأ النعوت ، لذا كانت نهايتهم كما قال – سبحانه – :

﴿ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾(٢) .

(١) سورة القصص : الآية ٥٧ .

(٢) سورة العنكبوت : الآية ٤٠ .



طبعة ٢٠١٨ / ٢٠١٩م

## المناقشة

١ فى سورة «يس» آيات تحكى عن إرسال الله - تعالى - لثلاثة من الرسل لإحدى القرى الكافرة وكان رد أهل القرية كما جاء فى السورة ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [يس: ١٨].

(ا) تخير الإجابة الصحيحة مما بين القوسين :

- معنى « تطيرنا» : (تشاءمنا - سعدنا - ضقنا).
- «لئن لم تنتهوا» القسم يفيد : (التوبيخ - التهديد - النفى).

(ب) من خلال رد مشركى القرية اذكر رأيك فيهم.

٢ الجهلاء المعاندون عندما يعجزون عن الرد المقنع يشهرون السلاح فى وجه من يحاورهم. هات من حوار الرسل مع أقوامهم ما يؤيد هذه العبارة.

٣ كان حوار إبراهيم - عليه السلام - مع والده نموذجًا لأدب حوار الابن مع أبيه. وضح هذه العبارة.

٤ **ضع علامة ( ✓ ) أمام العبارة الصحيحة وعلامة ( ✗ ) أمام غير الصحيحة:**

- أنكر مشركو مكة رسالة محمد لأنه فقير يتيم.
- دعا إبراهيم - عليه السلام - على أبيه؛ لأنه لم يؤمن برسالته.
- استنكر هود - عليه السلام - ما عليه قومه من ترف وطغيان.

٥ كانت محاورات النبى ﷺ مع أعدائه تجرى بأسلوبين. حددهما.

٦ ما الدروس المستفادة من محاورات الرسل مع أقوامهم ؟

٧ إذا اشتركت فى مناظرة من المناظرات التى تقيمها مدرستك .. فما الأسس التى تبنى عليها محاوراتك ؟

# الفصل السادس

# نماذج من حوار الأخيار مع الأشرار

الحوار بين العقلاء والسفهاء أو بين الأخيار والأشرار ، تعددت صوره، وتنوعت أساليبه فى القرآن الكريم ، ومن الأدلة على ذلك ما دار بين الرسل وبين المكذبين من أقوامهم من محاورات كثيرة حكاها القرآن الكريم ، وزخرت بها السنة النبوية المطهرة .

ولقد كان من وسائل التسلية التى ساقها الخالق – عز وجل – لرسوله ﷺ أن ذكّره بأن كل رسول من قبله قد لقى من قومه الجاحدين ما لقى من الأذى قال – تعالى – :

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾[1] .

ومن صور المحاورات التى حدثت بين الأخيار والأشرار ، ما قصه القرآن علينا فى قوله – تعالى – : ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا[2] فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِۚ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾[3] .

(١) سورة الذاريات : الآيات ٥٢ : ٥٥ .

(٢) القربان : اسم ما يتقرب به إلى الله – تعالى – من صدقة أو غيرها. ويطلق فى أكثر الأحوال على الذبائح التى يتقرب إلى الله بذبحها .

(٣) سورة المائدة : الآيات ٢٧ : ٢٩ .

والمراد بابنى آدم : هابيل وقابيل اللذان قص علينا القرآن جانبًا من حياتهما.

فحكى - سبحانه - ما دار بين الأخوين من حوار فقال: ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ أى: قال قابيل متوعدًا أخاه هابيل : لأقتلنك بسبب قبول قربانك ، دون قربانى .

فأنت ترى أن هذا الأخ الظالم قد توعد أخاه بالقتل، وهو من أكبر الكبائر . دون أن يقيم للأخوة التى بينهما وزنا ودون أن يهتم بحرمة الدماء وبحق غيره فى الحياة. والذى حمله على ذلك الحسد له على مزية القبول .

وقد أكد تصميمه على قتله لأخيه بالقسم المطوى فى الكلام، والذى تدل عليه اللام ونون التوكيد الثقيلة. أى: والله لأقتلنك بسبب قبول قربانك .

وهنا يحكى القرآن الكريم ما ردَّ به الأخ البار التقى هابيل على أخيه الظالم الحاسد قابيل فيقول :

﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ .

فالله يتقبل الأعمال والصدقات من عباده المتقين الذين يخشونه فى السر والعلن، وليس من سواهم من الظالمين الحاسدين لغيرهم على ما آتاهم الله من نعم، فعليك أن تكون من المتقين لكى يقبل منك الله .

ثم انتقل الأخ التقى من وعظ أخيه بتطهير قلبه إلى تذكيره بحقوق الأخوة وما تقتضيه من بر وتسامح فقال - كما حكى القرآن عنه -:

﴿لَئِنۢ بَسَطتَ (١) إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

والمعنى : لئن مددت إلىَّ - يا أخى - يدك لتقتلنى ظلما وحسدًا.

﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ﴾ فإن القتل - وخصوصا بين الإخوة - جريمة منكرة، تأباها شرائع الله - تعالى - وتنفر منها العقول السليمة .

(١) وبسط اليد : مدها. والمراد هنا : مدها بالاعتداء .

وإذا كان الأخ الظالم قابيل قد أكد تصميمه على قتل أخيه هابيل بجملة قسمية وهى ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ فإن هابيل قد أكد عدم قتله له بجملة قسمية -أيضا -وهى:

﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(١).

ثم انتقل هابيل من وعظ أخيه بتطهير قلبه وبتذكيره بما تقتضيه الأخوة من بر وتسامح إلى تخويفه من عقاب الآخرة فقال:

﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ (٢) فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وإلى هنا نرى أن هابيل قد استعمل فى صرف أخيه عن جريمة القتل وسائل متنوعة فهو أولًا أرشده إلى أن الله - تعالى - إنما يتقبل الأعمال من المتقين، فإذا أراد أن يتقبل قربانه فعليه أن يكون منهم.

وأرشده ثانيا إلى حقوق الأخوة وما تقتضيه من محبة ومودة وتسامح.

وأرشده ثالثا إلى أنه لا يمنعه من بسط يده إليه إلا الخوف من الله رب العالمين.

وأرشده رابعاً إلى أن ارتكابه لجريمة القتل سيؤدى به إلى عذاب النار يوم القيامة، بسبب قتله لأخيه ظلما وحسدًا.

فماذا كان وَقْعُ هذا النصح الحكيم، والإرشاد القويم فى نفس ذلك الإنسان الحاسد الظالم؟

لقد بين الله ذلك بقوله:

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ (٣) قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (٤).

أصبح من الخاسرين فى دنياه لأنه قتل أخاه، والأخ سند لأخيه وعون له، لما بينهما من رحم قوية ورابطة متينة.

(١) سورة المائدة: الآية ٢٨.
(٢) وقوله: ﴿تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾، أى ترجع وتعود.
(٣) طوعت له نفسه: زينت وسهلت له نفسه.
(٤) سورة المائدة: الآية ٣٠.

وأصبح من الخاسرين فى آخرته، لأنه ارتكب جريمة من أكبر الجرائم وأشنعها وقد توعد الله مرتكبها بالغضب واللعنة والعذاب العظيم .

كذلك من صور المحاورات بين الأخيار والأشرار، ما حكاه القرآن من مراجعات ومجادلات وتساؤلات تدور بين أهل الجنة وأهل النار، قص علينا القرآن منها قوله – تعالى – :

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ٤٥ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ٤٦ ۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٧ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٨ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٤٩ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٥١ ﴾ (١) .

وفى هذه الآيات الكريمة نرى حوارًا يدور بين أهل الجنة وأهل النار ، كما نرى حوارا ثانيا يدور بين أصحاب الأعراف وبين أهل الجنة وأهل النار ، كما نرى حوارا ثالثا يدور بين أهل النار وأهل الجنة .

وفى الحوار الأول الذى بين أهل الجنة وأهل النار نشاهد أن أهل الجنة سوف يسألون أهل النار سؤال تعيير وتوبيخ يوم القيامة فيقولون لهم : إننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا من ثواب وعطاء جزيل قد تحقق ووقع ، فهل وجدتم يا أهل النار ما توعدكم به ربكم من عقاب وسوء مصير قد تحقق – أيضا – ووقع؟

(١) سورة الأعراف : الآيات ٤٤ – ٥١ .

وهنا لم يستطع أهل النار أن ينكروا ما حاق بهم من خزى وهوان فيقولون لأهل الجنة : نعم قد وجدنا ما توعدنا به خالقنا على ألسنة رسله قد تحقق ووقع.

وهذا النداء إنما يكون بعد استقرار أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار .

والظاهر أن هذا النداء من كل أهل الجنة لكل أهل النار ، لأن الجمع إذا قابل الجمع يوزع الفرد على الفرد ، فكل فريق من أهل الجنة ينادى من كان يعرفه من أهل النار فى دار الدنيا .

وعبر – سبحانه – بالفعل الماضى ﴿وَنَادَىٰٓ﴾ مع أن هذا النداء يكون يوم القيامة بعد استقرار كل فريق فى مكانه ، لتحقق الوقوع وتأكده .

ثم بين – سبحانه – ما جرى بعد ذلك فقال :

﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ .

والمعنى : بعد أن قامت الحجة على الكافرين وثبت الفوز للمؤمنين . نادى مناد بين الفريقين بقوله : لعنة الله على الظالمين لأنفسهم ، ولغيرهم ، الذين من صفاتهم أنهم يمنعون الناس عن اتباع شريعة الله ، ويريدون لها أن تكون معوجة غير مستقيمة حتى لا يتبعها الناس ، وهم بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب جاحدون مكذبون .

وفى قوله : ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ . نكر المؤذن . لأن معرفته غير مقصودة بل المقصود الإعلام بما يكون هناك من الأحكام ولم يروَ عن رسول الله ﷺ فيه شىء، فهو من أمور الغيب التى لا تعلم علما صحيحا إلا بالتوقيف المستند إلى الوحى، وما ورد فى ذلك فهو من الآثار التى لا يعتمد عليها .

قال بعض العلماء : «وفى هاتين الآيتين تعرض السورة لمرحلة أخرى من مراحل العذاب ، وهى نداء أصحاب الجنة لأصحاب النار نداء يسجل عليهم الخزى والنكال، ويشعرهم بالحسرة والندامة ، إذ كذبوا بما يرونه الآن واقعا فى مقابلة النعيم الذى صار إليه أهل الإيمان ، وأحسوا به كذلك واقعا .

وفى هـذا نـرى صـورة من الحوار الـذى يمثل الرضـا والاطمئنـان واللذة من جانب، ويمثل الحسرة والذلة والقلق من جانب آخر ، ويصور الحكم النافذ الذى لا مـرد لـه ولا محيص عنه، يـؤذن به مؤذن لا يدرك كنهـه ولا يعلم من هو ولا ما صوته ولا كيف يلقى أذانه ، ولا كيف يكون أثر هذا فى نفوس سامعيه.

وإنـه لتصوير قوى بارع ، يحرك إليه النفوس ، ويهز المشـاعر ، ويبين أن النهاية الأليمة المتوقعة لهؤلاء المكذبين ، إنما هى تسجيل اللعنة عليهم ، والطرد والحرمان من رحمة الله ، مشيرا إلى أسباب ذلك الحرمان الماثلة فى ظلمهم الذى كونه صدهم عن سبيل الله ، وبغيهم إياها عوجا وانحرافا ، وكفرهم بدار الجزاء»[1] .

ثـم ينتقل القرآن إلى الحديث عن مشـهد آخر من مشـاهد يوم القيامـة ، يحدثنا فيه عن أصحاب الأعراف وما يدور بينهم وبين أهل الجنة وأهل النار من حوار فيقول : ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ﴾ أى : بـين أهـل الجنـة وأهـل النار حجـاب يفصـل بينهما ، ويمنع وصول أحد الفريقين إلى الآخر .

ثم قال – تعالى – :

﴿ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾

الأعـراف : جمع عرف ، وهو المكان المرتفع مـن الأرض وغيرها . ومنه عرف الديك وعرف الفرس وهو الشعر الذى يكون فى أعلى الرقبة .

والمعنـى : وبـين الجنة والنار حاجـز يفصل بينهما وعلى أعـراف هذا الحاجز – أى فى أعـلاه – رجـال يـرون أهل الجنة وأهـل النار فيعرفون كلا منهم بسـيماهم وعلاماتهـم التـى وصفهـم الله بها فى كتابه كبيـاض الوجوه بالنسـبة لأهل الجنة ، وسـوادها لأهل النار ، ونادى أصحاب الأعراف أصحاب الجنة عند رؤيتهم لهم بقولهم : سلام عليكم وتحية لكم ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ .

(١) تفسير القرآن الكريم ص ٥٠١ لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت – رحمه الله – .

هـذا، وللعلماء أقـوال فى أصحاب الأعراف أوصلها بعـض المفسرين إلى اثنى عشر قولا، من أشهرها قولان :

أولهما : أن أصحاب الأعراف قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، وقد روى هذا القول عن حذيفة وابن عباس وابن مسعود وغير واحد من السلف والخلف .

وقـد استشـهد أصحـاب هذا القـول بـما رواه ابن مردويـه عن جابـر بن عبد الله قال: سـئل رسـول الله ﷺ عمن اسـتوت حسناتهم وسـيئاتهم فقال : «**أولئك أصحاب الأعراف ، لم يدخلوها وهم يطمعون**» .

وعـن الشـعبى عن حذيفة أنه سـئل عن أصحـاب الأعراف فقـال : «هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة ، وخلفت بهم حسناتهم عن النار. قال فوقفوا هناك على السور حتى يقضى الله فيهم»(١).

وهناك آثار أخرى تقوى هذا الرأى ذكرها الإمام ابن كثير فى تفسيره(٢) .

أمـا الرأى الثانى : فيرى أصحابه أن أصحاب الأعراف قوم من أشرف الخلق وعدولهم كالأنبياء والصديقين والشهداء . وينسب هذا القول إلى مجاهد وإلى أبى مجلـز فقـد قال مجاهد «أصحاب الأعـراف قوم صالحون فقهاء علـماء» . وقال أبو مجلـز : أصحاب الأعراف هم رجال من الملائكـة يعرفون أهل الجنة وأهل النار . ومعنى كونهم رجالا - فى قول أبى مجلز - أى : فى صورتهم .

وقـد رجح بعـض العلماء الرأى الثانى فقال : «وليـس أصحاب الأعراف ممن تسـاوت حسناتهم وسـيئاتهم كما جاء فى بعض الروايات ، لأن ما نسب إليهم من أقوال لا يتفق مع انحطاط منزلتهم عن أهل الجنة ، انظر قولهم للمستكبرين .

﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾.

فـإن هـذا الكلام لا يصدر إلا مـن أرباب المعرفة الذين اطمأنـوا إلى مكانتهم.

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢١٦ . (٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢١٦ وما بعدها .

ولـذا أرجـح أن رجـال الأعراف هم عـدول الأمم والشـهداء على النـاس ، وفى مقدمتهم الأنبياء والرسل»[١].

والـذى نـراه : أن هناك حجابًـا بين الجنة والنار ، الله أعلـم بحقيقته ، وأن هذا الحجـاب لا يمنـع وصـول الأصوات عن طريـق المناداة ، وأن هـذا الحجاب من فوقه رجال يرون أهل الجنة وأهل النار فينادون كل فريق بما يناسـبه ، يحيون أهل الجنـة ويقرّعـون أهل النـار ، وأن هؤلاء الرجـال - يغلب على ظننـا - أنهم قوم تسـاوت حسـناتهم وسـيئاتهم . لأن هذا القول هو قول جمهور العلماء من السلف والخلـف، ولأن الآثار تؤكـده ، ولذا قال ابن كثير : «واختلفت عبارات المفسرين فى أصحاب الأعراف من هم ؟ وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد ، وهو أنهم قوم تسـاوت حسـناتهم وسـيئاتهم. نص عليه حذيفة وابن عباس وابن مسـعود وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله»[٢].

وقوله : ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه فى أصحاب الأعراف، أى أن أصحاب الأعراف عندما رأوا أهل الجنـة سـلموا عليهم حال كونهـم - أى أصحاب الأعـراف - لم يدخلوها معهم وهم طامعون فى دخولها مترقبون له.

وثانيهـما : أنـه فى أصحاب الجنة : أى : أنهم لم يدخلوها بعد ، وهم طامعون فى دخولها لما ظهر لهم من يسر الحساب . وكريم اللقاء .

ثم قال - تعالى - :

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ .

أى : وإذا ما اتجهت أبصار أصحاب الأعراف إلى جهة النار قالوا مسـتعيذين بالله مـن سـوء مـا رأوا من أحوالهـم : يا ربنا لا تجعلنـا مع هؤلاء القـوم الظالمين ، ولا تجعلنا وإياهم فى هذا المكان المهين .

(١) تفسير القرآن الكريم ص ٥٠٣ لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢١٦ .

قال صاحب المنار : «وقد أفاد هذا التعبير بالفعل المبنى للمجهول أنهم يوجهون أبصارهم إلى أصحاب الجنة بالقصد والرغبة ويلقون إليهم السلام ، وأنهم يكرهون رؤية أصحاب النار ، فإذا صرفت أبصارهم تلقاءهم من غير قصد ولا رغبة، بل بصارف يصرفهم إليها قالوا : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين .

ثم قال : والإنصاف أن هذا الدعاء أليق بحال من استوت حسناتهم وسيئاتهم وكانوا موقوفين مجهولا مصيرهم»[1] .

ثم بين – سبحانه – ما يقوله أهل الأعراف لرؤوس الكفر فى هذا الموقف العصيب فقال :

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ .

أى : ونادى أصحاب الأعراف رجالا من أهل النار وكانوا أصحاب وجاهة وغنى فى الدنيا ، فيقولون لهم على سبيل التوبيخ والتقريع ما أغنى عنكم جمعكم وكثرتكم واستكباركم فى الأرض بغير الحق . فقد صرتم فى الآخرة بسبب كفركم وعنادكم إلى هذا الوضع المهين .

وقد كرر – سبحانه – ذكرهم مع قرب العهد بهم ، فلم يقل «ونادوا» لزيادة التقرير، وكون هذا النداء خاصًّا فى موضوع خاص فكان مستقلا .

وقوله : ﴿يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ﴾ أى : بعلاماتهم الدالة على سوء حالهم يومئذ كسواد الوجوه ، وظهور الذلة على وجوههم . أو يعرفونهم بصورهم التى كانوا يعرفونهم بها فى الدنيا .

ثم يزيدون توبيخهم وتبكيتهم فيقولون لهم : ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴾ .

أى : إن أصحاب الأعراف يشيرون إلى أهل الجنة من الفقراء والذين كانوا مستضعفين فى الأرض ثم يقولون لرؤوس الكفر الذين كانوا يعذبونهم : أهؤلاء الذين أقسمتم فى الدنيا أن الله – تعالى – لا ينالهم برحمته فى الآخرة لأنه لم يعطهم فى الدنيا مثل ما أعطاكم من مال وبنين وسلطان .

(١) تفسير المنار جـ٨ ص ٤٣٤ .

وهنا ينادى مناد من قبل الله – تعالى – على هؤلاء الفقراء فيقول لهم :

﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴾.

أى : ادخلوا الجنة لا خوف عليكم مما يكون فى المستقبل ، ولا أنتم تحزنون على ما خلفتموه فى الدنيا .

وقيل : إن قوله – تعالى – : ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾ . من كلام أصحاب الأعراف – أيضا – فكأنهم التفتوا إلى أولئك المشار إليهم من أهل الجنة وقالوا لهم : امكثوا فى الجنة غير خائفين ولا محزونين على أكمل سرور وأتم كرامة .

ثم تسوق لنا السورة الكريمة بعد ذلك مشهدًا ختاميًّا من مشاهد يوم القيامة تدور محاوراته بين أصحاب الجنة وأصحاب النار فتقول :

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ .

إفاضة الماء : صبه ، ومادة الفيض فيها معنى الكثرة .

والمعنى : أن أهل النار – بعد أن أحاط بهم العذاب المهين – أخذوا يطلبون من أهل الجنة بذلة وانكسار فيقولون لهم : أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله من طعام ، لكى نستعين بهما على ما نحن فيه من سموم وحميم .

وهنا يرد عليهم أهل الجنة بما يقطع آمالهم بسبب أعمالهم فيقولون لهم : إن الله منع كلا منهما على الكافرين ، الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا ، أى الذين اتخذوا دينهم – الذى أمرهم الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه – مادة للسخرية والتلهى ، وصرف الوقت فيما لا يفيد ، فأصبح الدين – فى زعمهم – صورة ورسوما لا تزكى نفسا ، ولا تطهر قلبا ، ولا تهذب خلقا ، وهم فوق ذلك قد غرتهم الحياة الدنيا – أى : شغلتهم – بمتعها ولذائذها وزينتها عن كل ما يقربهم إلى الله ، ويهديهم إلى طريقه القويم .

وقولـه – تعـالى – : ﴿ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا ﴾ معنـاه فاليوم نفعل بهم فعل الناسـى مـن عدم الاعتناء بهم وتركهـم فى النار تركا كليًّا بسـبب تركهم الاسـتعداد لهذا اليوم ، وبسبب جحودهم لآياتنا التى جاءتهم بها أنبياؤهم .

فالنسـيان فى حق الله – تعالى – مسـتعمل فى لازمه، بمعنى أن الله – تعالى – لا يجيب دعاءهم ، ولا يرحم ضعفهم وذلهم ، بل يتركهم فى النار كما تركوا فى الدنيا الإيمان والعمل الصالح .

وهكـذا نرى فى هـذه الآيـات الكريمة صورا مـن المحاورات التـى تدور بين العقـلاء والسـفهاء ، أو بـين الأخيـار والأشرار. وهى محاورات فيها مـا فيها من التوجيهات الحكيمة ، والإرشادات القويمة ، والعظات الجليلة لقوم يعقلون .

***

هذا . وشبيه بهذه المحاورات التى وردت فى هذه الآيات ، قوله – تعالى –:

﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾[1].

ففى هذه الآيات الكريمة نشـاهد حوارًا واضحا يدور فى الآخرة بين المؤمنين الصادقين، وبين المنافقين الكاذبين .

(١) سورة الحديد : الآيات ١٢ – ١٥ .

والمعنى : واذكر – أيها العاقل – لتعتبر وتتعظ ، يوم تبصر المؤمنين والمؤمنات، يسعى نورهم ويتحرك من أمامهم ومن جهة يمينهم على سبيل التشريف والتكريم لهم .

وتقول لهم الملائكة على سبيل التحية : نبشركم اليوم بجنات عظيمة ، تجرى من تحت ثمارها وأشجارها الأنهار العذبة ، حالة كونكم خالدين فيها خلودًا أبديا وذلك الذى أنتم فيه من نور يسعى بين أيديكم ومن جنات أنتم خالدون فيها ، هو الفوز العظيم الذى لا يعادله فوز أو فلاح .

واذكر – أيضا – يوم يقول المنافقون والمنافقات الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، يقولون للمؤمنين الصادقين يوم الحساب على سبيل التذلل والتحسر : انتظرونا وتريثوا فى سيركم ، لكى نلحق بكم ، فنستنير بنوركم الذى حرمنا منه، وننتفع بالاقتباس من نوركم الذى أكرمكم الله – تعالى – به .

وهنا يرد عليهم المؤمنون الصادقون بقولهم : ﴿ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا ﴾[1] .

أو ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا نورًا عن طريق سببه وهو الإيمان والعمل الصالح.

وهذا القول من المؤمنين للمنافقين إنما هو على سبيل التهكم بهم ، إذ لا نور فى الحقيقة وراء المنافقين .

ثم بين – سبحانه – ما حدث للمنافقين بعد ذلك فقال :

﴿ فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ﴾ .

أى : فضرب بين المؤمنين وبين المنافقين بحاجز عظيم ، هذا الحاجز العظيم والسور الكبير، له باب، باطن هذا الباب مما يلى المؤمنين فيه الجنة ، وظاهر هذا الباب مما يلى المنافقين، يأتى من جهته العذاب .

والمقصود من هذه الآية الكريمة : بيان أن المؤمنين فى مكان آمن تحيط به الجنة، أما المنافقون ففى مكان مظلم يؤدى بهم إلى النار وبئس القرار .

(١) التمسوا : اطلبوا .

ثم حكى القرآن الكريم أن المنافقين لم يكتفوا بهذا الرجاء للمؤمنين ، بل أخذوا ينادونهم فى تحسر وتذلل فيقولون لهم - كما حكى القرآن عنهم - :

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ ؟

أى : ينادى المنافقون المؤمنين نداء كله حسرة وندامة ومهانة قائلين لهم : ألم نكن معكم فى الدنيا ننطق بالشهادتين كما تنطقون ، ونصلى كما تصلون ؟

فيرد عليهم المؤمنون : بلى كنتم معنا فى الدنيا تصلون كما نصلى، وتنطقون بالشهادتين كما ننطق، ولكنكم فى الدنيا أضللتم أنفسكم بالنفاق الذى هو كفر باطن وإسلام ظاهر ، وانتظرتم وقوع المصائب بنا لأنكم تحبون لنا الشر وتكرهون لنا الخير، وشككتم فى الحق الذى جاءكم به الرسول ﷺ من عند ربه ، وخدعتكم الأمانى الكاذبة والآمال الفاسدة، وبقيتم على هذا النفاق وإذكاء روح الفتن والارتياب والتربص السيئ والاغترار بالباطل، حتى نزل بكم الموت وأنتم على ذلك ، وخدعكم فى سعة رحمة الله - تعالى - الشيطان ، فأطمعكم فى غير مطمع ، وهنا أنتم الآن ترون سوء عاقبتكم .

فاليوم - أيها المنافقون - لا يقبل منكم فداء ولا من الذين كفروا ، ومصيركم جميعا النار وهى أولى بكم من غيرها ، وبئس المصير مصيركم .

ومن هذه الآيات الكريمة يتبين لنا كيف حاور المؤمنون المنافقين حوارا منطقيا مقنعا، بدليل أنهم وافقوهم على أنهم كانوا معهم فى الدنيا ، ولكن الذى أدى بهؤلاء المنافقين إلى هذا المصير الأليم هو نفاقهم وخداعهم وكذبهم وظنهم السوء وارتيابهم فى صدق الرسول ﷺ، واستحواذ الشيطان عليهم حتى أنساهم كل طاعة ، وسخرهم لكل معصية .

وبعد؛ فهذه نماذج محدودة من المحاورات التى دارت بين الأخيار والأشرار ، أو بين العقلاء والسفهاء .

ولا شك أن القرآن الكريم زاخر بأمثال هذه المحاورات التى حدثت بين الرسل وأقوامهم المكذبين ، وأن السنة النبوية كذلك فيها الكثير من أمثال هذه المحاورات ، ولكن المقام لا يتسع لسرد كل ما ورد فى ذلك ، وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق.

## المناقشة

١ الحوار الذى دار بين هابيل وقابيل نموذج لأدب الأخيار فى حوارهم مع الأشرار – ناقش .

٢ ما الأسباب الخفية لموقف قابيل من أخيه ؟

٣ استعمل هابيل فى صرف أخيه عن القتل وسائل متعددة. اذكرها .

قال – تعالى – :

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ۚ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) ﴾

(ا) هات معنى : « الأعراف – سيماهم» .

(ب) اختلف المفسرون فى تعريف «أصحاب الأعراف» .

فما التفسير الذى تميل إليه؟ ولماذا؟

٤ تصور الآيات من ١٢ – ١٥ من سورة الحديد الحوار الذى دار بين المؤمنين والمنافقين فى الآخرة .

(ا) من هم المنافقون ؟ وما الحوار الذى دار بين الفريقين ؟

(ب) المنافقون أكثر خطرا من المشركين . ناقش .

٥ صور الحوار الذى دار بين أهل الجنة وأهل النار بقلمك .

# الفصل السابع

# نماذج من حوار الأخيار

كما ساق القرآن الكريم نماذج للمحاورات التى دارت بين العقلاء والسفهاء، أو بين الأشرار فيما بينهم - كما سبق أن ذكرنا، ساق أيضا نماذج متنوعة للمحاورات التى دارت بين الأخيار العقلاء فيما بينهم، مما يدل على رجاحة عقولهم، وسمو أخلاقهم، وطهارة قلوبهم، وصدق إيمانهم، واستقامة أخلاقهم، وشكرهم لخالقهم - عز وجل - على ما منحهم من نعم لا تحصى.

(١) ومن صور المحاورات التى حكاها القرآن الكريم، والتى دارت بين العقلاء الأخيار فيما بينهم، ما قاله إبراهيم لابنه إسماعيل - عليهما السلام - وما رد به هذا الابن البار الوفى على أبيه..

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾(١).

قيل: كانت سن إسماعيل في ذلك الوقت ثلاث عشرة سنة.

﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ﴾.

أى: فلما بلغ الغلام مع أبيه هذه السن، قال الأب لابنه: يابنى إنى رأيت فى منامى أنى أذبحك، فانظر ماذا ترى فى شأن نفسك.

(١) سورة الصافات: الآيات ١٠٢ - ١٠٧.



طبعة ٢٠١٨ / ٢٠١٩م

ورؤيا الأنبياء وحى كالوحى فى اليقظة ، وفى رواية أنه رأى ذلك فى ليلة التروية فأخذ يفكر فى أمره ، فسميت بذلك ، فلما رأى ما رآه سابقا عرف أن هذه الرؤيا من الله ، فسمى بيوم عرفة، ثم رأى مثل ذلك فى الليلة الثالثة فهمَّ بنحره فسمى بيوم النحر .

«ولعل السر فى كونه مناما لا يقظة ، أن تكون المبادرة إلى الامتثال ، أدل على كمال الانقياد والإخلاص .. »[1] .

وإنما شاوره بقوله : ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ مع أنه سينفذ ما أمره الله – تعالى – به فى منامه سواء أرضى إسماعيل أم لم يرض ، لأن فى هذه المشاورة إعلاما له بما رآه، لكى يتقبله بثبات وصبر ، وليكون نزول هذا الأمر عليه أهون، وليختبر عزمه وجلده .

وقوله : ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

حكاية لما رد به إسماعيل على أبيه إبراهيم – عليهما السلام – وهو رد يدل على علو كعبه في الثبات، وفى احتمال البلاء ، وفى الاستسلام لقضاء الله وقدره .

أى : قال الابن لأبيه : يا أبت افعل ما تؤمر به من قبل الله – تعالى – ولا تتردد فى ذلك وستجدنى إن شاء الله من الصابرين على قضائه .

وفى هذا الرد ما فيه من سمو الأدب ، حيث قدم مشيئة الله – تعالى – ونسب الفضل إليه ، واستعان به – سبحانه – فى أن يجعله من الصابرين على البلاء.

وهكذا الأنبياء – عليهم السلام – يلهمهم الله – تعالى – فى جميع مراحل حياتهم ما يجعلهم فى أعلى درجات السمو النفسى ، واليقين القلبى . والكمال الخلقى .

(ب) كذلك من صور المحاورات التى قصها علينا القرآن الكريم، والتى تمت بين العقلاء الأخيار فيما بينهم : تلك المحاورات التى دارت بين موسى – عليه السلام – وبين الرجل الصالح الذى آتاه الله – تعالى – علما من لدنه وهو الخضر – رحمه الله – .

(١) تفسير الألوسى جـ ٢٣ ص ١٢٩ .

وقد دارت محاورات حكيمة بين موسى – عليه السلام – وبين الخضر ، وقد حكى القرآن ما دار بينهما فى قوله – تعالى – :

﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ٦٦ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٦٧ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ٦٨ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ٦٩ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ٧٠ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا إِمۡرٗا ٧١ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٧٢ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ٧٣ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ٧٤ ۞ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٧٥ قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ٧٦ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ٧٨ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ٧٩ وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ٨٠ فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ٨١ وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ٨٢ ﴾[1] .

(١) سورة الكهف : الآيات : ٦٦ – ٨٢ .

قال موسى للخضر – عليهما السلام – بعد أن التقيا «هل أتبعك» أى: هل تأذن لى فى مصاحبتك واتباعك . بشرط أن تعلمنى من العلم الذى علمك الله إياه شيئا أسترشد به فى حياتى ، وأصيب به الخير فى دينى .

فأنت ترى أن موسى – عليه السلام – قد راعى فى مخاطبته للخضر أسمى ألوان الأدب اللائق بالأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – حيث خاطبه بصيغة الاستفهام الدالة على التلطف ، وحيث أنزل نفسه منه منزلة المتعلم من المعلم، وحيث استأذنه فى أن يكون تابعا له ، ليتعلم منه الرشد والخير .

قال بعض العلماء : فى هذه الآية دليل على أن المتعلم تبع للعالم ، وإن تفاوتت المراتب، ولا يظن أن فى تعلم موسى من الخضر ما يدل على أن الخضر كان أفضل من موسى ، فقد يأخذ الفاضل عن الفاضل ، وقد يأخذ الفاضل عن المفضول ، إذا اختص الله – تعالى – أحدهما بعلم لا يعلمه الآخر، فقد كان علم موسى يتعلق بالأحكام الشرعية والقضاء بظاهرها ، وكان علم الخضر يتعلق ببعض الغيب ومعرفة البواطن ..[1] .

ثم حكى – سبحانه – ما رد به الخضر على موسى فقال :

﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾.

أى : قال الخضر لموسى إنك يا موسى إذا اتبعتنى ورافقتنى ، فلن تستطيع معى صبرا ، بأى وجه من الوجوه .

قال ابن كثير : «أى أنك لا تقدر يا موسى أن تصاحبنى ، لما ترى من الأفعال التى تخالف شريعتك ، لأنى على علم من علم الله – تعالى – ما علمك إياه ، وأنت على علم من علم الله – تعالى – ما علمنى إياه ، فكل منا مكلف بأمور من الله دون صاحبه، وأنت لا تقدر على صحبتى»[2] .

(١) تفسير فتح البيان جـ ٥ ص ٤٧٧ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٧٨ .

وقوله : ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾.

تعليل لعدم استطاعة الصبر معه.

أى : وكيف تصبر يا موسى على أمور ستراها منى . هذه الأمور ظاهرها أنها منكرات لا يصح السكوت عليها ، وباطنها لا تعلمه لأن الله لم يطلعك عليه ؟

فالخبر بمعنى العلم . يقال : خبر فلان الأمر يخبره : أى : علمه . والاسم الخبر، وهو العلم بالشىء ، ومنه الخبير ، أى : العالم .

وكأن الخضر يريد بهذه الجملة الكريمة أن يقول لموسى : إنى واثق من أنك لن تستطيع معى صبرا ، لأن ما أفعله سيصطدم بالأحكام الظاهرة ، وبالمنطق العقلى، وبغيرتك المعهودة فيك ، وأنا مكلف أن أفعل ما أفعل ، لأن المصلحة الباطنة فى ذلك، وهى تخفى عليك .

ولكن موسى – عليه السلام – الحريص على تعلم العلم النافع ، يصر على مصاحبة الرجل الصالح ، فيقول له فى لطف وأدب ، مع تقديم مشيئة الله – تعالى –:

﴿ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴾ .

أى: قال موسى للخضر: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ معك ، غير معترض عليك، ولا أعصى لك أمرا من الأمور التى تكلفنى بها .

وقدم موسى – عليه السلام – المشيئة ، أدبا مع خالقه – عز وجل – واستعانة به – سبحانه – على الصبر وعدم المخالفة .

وهنا يحكى القرآن الكريم أن الخضر ، قد أكد ما سبق أن قاله لموسى ، وبين له شروطه إذا أراد مصاحبته ، فقال :

﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾.

ثم تحكى السورة بعد ذلك ثلاثة أحداث فعلها الخضر ولكن موسى لم يصبر عليها، بل اعترض وناقش ، أما الحادث الأول فقد بينه – سبحانه – بقوله :

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾.

أخرج الشيخان عن ابن عباس : أنهما انطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت بهما سفينة فكلموهم أن يحملوهم ، فعرفوا الخضر فحملوهما بغير نَوْلٍ : أى أجر[1] .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ بيان لما فعله الخضر بالسفينة .

وهنا ما كان من موسى إلا أن قال له على سبيل الاستنكار والتعجب مما فعله : ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾ . أى : أفعلت ما فعلت لتكون عاقبة الراكبين فيها الغرق والموت بهذه الصورة المؤلمة ؟

﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾[2].

أى : قال موسى للخضر بعد خرقه للسفينة : لقد جئت شيئا عظيما ، وارتكبت أمرا بالغا فى الشناعة ، حيث عرضت ركاب السفينة لخطر الغرق .

وهنا أجابه الخضر بقوله : ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾.

أى: ألم أقل لك سابقا إنك لن تستطيع مصاحبتى ، ولا قدرة لك على السكوت على تصرفاتى التى لا تعرف الحكمة من ورائها ؟

ولكن موسى – عليه السلام – رد معتذرا لما فرط منه وقال : ﴿ لَا تُؤَاخِذْنِى ﴾ أيها العبد الصالح ، بما نسيت، أى : بسبب نسيانى لوصيتك فى ترك السؤال والاعتراض حتى يكون لى منك البيان، ﴿ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴾[3]. أى : ولا تكلفنى من أمرى مشقة فى صحبتى إياك .

وكأن موسى – عليه السلام – الذى اعتزم الصبر وقدم المشيئة ، ورضى بشروط الخضر فى المصاحبة .. كأنه قد نسى كل ذلك أمام المشاهدة العملية ، وأمام التصرف الغريب الذى صدر من الخضر دون أن يعرف له سببا .

---

(١) تفسير الألوسى جـ ١٥ ص ٣٣٥ .
(٢) والإمر : الداهية، المنكر .
(٣) يقال : أرهق فلان فلانا. إذا أتعبه وأثقل عليه وحمله ما لا يطيقه .

وهكذا الطبيعة البشرية تلتقى فى أنها تجد للتجربة العملية وقعا وطعما ، يختلف عن الواقع والطعم الذى تجده عند التصور النظرى .

فموسى – عليه السلام – وعد الخضر بأنه سيصبر.. إلا أنه بعد أن شاهد ما لا يرضيه اندفع مستنكرا .

أما الحادث الثانى الذى لم يستطع موسى أن يقف أمامه صامتا ، فقد حكاه القرآن فى قوله : ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ ﴾ .

وهنا لم يستطع موسى – عليه السلام – أن يصبر على ما رأى ، أو أن يكظم غيظه، فقال باستنكار وغضب : ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ ﴾ أى : طاهرة بريئة من الذنوب ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ أى : بغير أن ترتكب ما يوجب قتلها ، لأنها لم تقتل غيرها حتى تقتص منها . أى : إن قتلك لهذا الغلام كان بغير حق .

﴿لَّقَدْ جِئْتَ ﴾ أيها الرجل ﴿شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴾ أى : منكرًا عظيمًا . يقال : نكر الأمر، أى : صعب واشتد . والمقصود : لقد جئت شيئا أشد من الأول فى فظاعته واستنكار العقول له .

ومرة أخرى يذكره الخضر بالشرط الذى اشترطه عليه . وبالوعد الذى قطعه على نفسه فيقول له : ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾ .

ويراجع موسى نفسه . فيجد أنه قد خالف ما اتفق عليه مع الرجل الصالح مرتين ، فيبادر بإخبار صاحبه أن يترك له فرصة أخيرة فيقول : ﴿إِن سَأَلْتُكَ ﴾ أيها الصديق ﴿عَن شَىْءٍ بَعْدَهَا ﴾ أى : بعد هذه المرة الثانية ﴿فَلَا تُصَٰحِبْنِى ﴾أى : فلا تجعلنى صاحبا أو رفيقا لك ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴾ أى : فإنك قد بلغت الغاية التى تكون معذورا بعدها فى فراقى ، لأنى أكون قد خالفتك مرارًا .

وهذا الكلام من موسى – عليه السلام – يدلك على اعتذاره الشديد للخضر، وعلى شدة ندمه على ما فرط منه ، وعلى الاعتراف له بخطئه .

ثم تسوق لنا السورة الكريمة الحادث الثالث والأخير فى تلك القصة الزاخرة بالمفاجآت والعجائب فتقول :

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا ...﴾.

أى : فانطلق موسى والخضر – عليهما السلام – يتابعان سيرهما . حتى إذا أتيا أهل قرية قيل هى «أنطاكية» ، وقيل : هى قرية بأرض الروم .

﴿ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا﴾، والاستطعام : سؤال الطعام . والمراد به هنا سؤال الضيافة لأنه هو المناسب لمقام موسى والخضر – عليهما السلام – ولأن قوله – تعالى – بعد ذلك : ﴿فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ يشهد له .

فأبى وامتنع أهل تلك القرية عن قبول ضيافتهما بخلا منهم وشحا .

وقوله – تعالى – : ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ ﴾ الخضر بأن سواه وأعاد إليه اعتداله، أو بأن نقضه وأخذ فى بنائه من جديد .

وهنا لم يتمالك موسى – عليه السلام – مشاعره ، لأنه وجد نفسه أمام حالة متناقضة ، قوم بخلاء أشحاء لا يستحقون العون .. ورجل يتعب نفسه فى إقامة حائط مائل لهم .. هلا طلب منهم أجرا على هذا العمل الشاق ، خصوصا وهما جائعان لا يجدان مأوى لهما فى تلك القرية !

لذا بادر موسى – عليه السلام – ليقول للخضر :

﴿ لَوۡ شِئۡتَ لَتَخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ﴾. أى : هلا طلبت أجرا من هؤلاء البخلاء على هذا العمل ، حتى تنتفع به ، وأنت تعلم أننا جائعان وهم لم يقدموا لنا حق الضيافة .

فالجملة الكريمة تحريض من موسى للخضر على أخذ الأجر على عمله ، ولوم له على ترك هذا الأجر مع أنهما فى أشد الحاجة إليه .

وكان هذا التحريض من موسى للخضر – عليهما السلام – هو نهاية المرافقة والمصاحبة بينهما ، ولذا قال الخضر لموسى : ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ ﴾ .

أى : هذا الذى قلته لى يجعلنا نفترق ، لأنك قد قلت لى قبل ذلك :

﴿ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ﴾ وها أنت تسألنى وتحرضنى على أخذ الأجر .

ومع ذلك فانتظر : ﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ ، قبل مفارقتى لك ﴿بِتَأْوِيلِ﴾ أى : بتفسير وبيان ما خفى عليك من الأمور الثلاثة التى لم تستطع عليها صبرا ، لأنك لم يكن عندك ما عندى من العلم بأسرارها الباطنة التى أطلعنى الله – تعالى – عليها .

ثم حكى القرآن الكريم ما قاله الخضر لموسى – عليهما السلام – فى هذا الشأن فقال – تعالى –:

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ.. ﴾.

أى : لضعفاء من الناس لا يستطيعون دفع الظلم عنهم، ولم يكن لهم مال يتعيشون منه سواها ، فكان الناس يركبون فيها ويدفعون لهؤلاء المساكين الأجر الذى ينتفعون به .

﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أى : أن أجعلها ذات عيب بالخرق الذى خرقته فيها، ولم أرد أن أغرق أهلها كما ظننت يا موسى ، والسبب فى ذلك : أنه ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ ، ظالم ، من دأبه أن يتعقب السفن الصالحة الصحيحة، ويستولى عليها ، ويأخذها اغتصابا وقسرا من أصحابها .

فهذا العيب الذى أحدثته فى السفينة ، كان سببا فى نجاتها من يد الملك الظالم، وكان سببا فى بقائها فى أيدى أصحابها المساكين .

فالضرر الكبير الذى أحدثته بها ، كان دفعا لضرر أكبر كان ينتظر أصحابها المساكين لو بقيت سليمة .

ثم بين – سبحانه – ما رد به الخضر على موسى فى اعتراضه على الحادثة الثانية فقال – تعالى – : ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ...﴾.

أى : ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ ﴾ الـذى سـبق لى أن قتلتـه ، واعترضـت عـلىَّ فى قتله يا موسـى ﴿ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ﴾ ولم يكـــن هـــو كذلـك فـقـد أعلمنـى الله – تعالى – أنه طبع كافرا.

﴿ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾[1] .

أى : فخشـينا لو بقى حيا هذا الغلام أن يوقع أبويه فى الطغيان والكفر ، لشـدة محبتهما له ، وحرصهما على إرضائه .

﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾.

والإبدال : رفع شىء وإحلال آخر محله .

أى : ﴿فَأَرَدْنَآ ﴾ بقتلـه ﴿أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾ بدل هذا الغلام الكافر الطاغى، ولـدا آخـر ﴿ خَيْرًا مِّنْهُ ﴾ أى مـن هـذا الغـلام، ﴿ زَكَوٰةً ﴾ أى: طهـارة وصلاحا ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أى: وأقرب فى الرحمة بهما والعطف عليهما ، والطاعة لهما .

ثـم ختم – سـبحانه – القصـة ، ببيان ما قالـه الخضر لموسـى فى تأويل الحادثة الثالثة فقال – تعالى –:

﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾.

﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ مـن تحت هذا الجدار وهما قادران على حمايته ، ولولا أنـى أقمته لانقـض وخرج الكنز من تحتـه قبل اقتدارهما على حفظه وعلى حسـن التصرف فيه .

(١) الخشية : الخوف الذى يشوبه تعظيم.

ثم ينفض الخضر يده من أن يكون قد تصرف بغير أمر ربه فيقول :

﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىٓ ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ .

أى : وما فعلت ما فعلته عن اجتهاد منى ، أو عن رأيى الشخصى ، وإنما فعلت ما فعلت بأمر ربى ومالك أمرى ، وذلك الذى ذكرته لك من تأويل تلك الأحداث هو الذى لم تستطع عليه صبرا، ولم تطق السكوت عليه ، لأنك لم يطلعك الله – تعالى– على خفايا تلك الأمور وبواطنها .. كما أطلعنى .

وبذلك انكشف المستور لموسى – عليه السلام –وظهر ما كان خافيا عليه .

ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هذه القصة وما جرى فيها من محاورات : أن الإنسان مهما أوتى من علم فعليه أن يطلب المزيد وأن يرحل من أجل طلب العلم، وأن العلم على قسمين علم مكتسب يدركه الإنسان باجتهاده وتحصيله، وعلم لدنى يهبه الله لمن يشاء من عباده ، وأن على المتعلم أن يكون متواضعا مع المعلم، وأن التأنى فى الحكم على الأمور من مناقب الفضلاء، كما أخذوا منها أن العقلاء الأخيار يلتزمون الأدب الرفيع ، والمنهج الرشيد ، والمنطق السديد فى محاوراتهم فيما بينهم ..

وهذا ما نراه واضحا جليا فى تلك المحاورات التى دارت بين موسى والخضر، ولعل الذين يناقشون أو يحاورون غيرهم فى مسألة ما يلتزمون هذا المنهج الحكيم.

## المناقشة

١ فى سورة الصافات حوار بين إبراهيم وابنه فيه : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ .

**( ا ) تخير الإجابة المناسبة مما بين القوسين فيما يأتى :**

- الابن الذى تحدثت عنه الآيات هو (إسماعيل - إسحق - يعقوب ).
- كان عمر الابن فى ذلك الوقت ( سبع سنوات - عشر سنوات - ثلاث عشرة سنة ) .
- « بلغ معه السعى» المراد: ( السعى بين الصفا والمروة - السعى فى قضاء المصالح - السعى لبناء الكعبة ) .

(ب) ما رأيك فى رد الابن على أبيه ؟ دلل على ما تقول .

(جـ) علمت أن صديقا لك يرد على والديه بصوت عال وسوء أدب.. فبم تنصحه؟ وكيف تؤكد نصيحتك ؟

٢ فى محاورات موسى - عليه السلام - مع الخضر - التى جاءت فى سورة الكهف - دروس وفوائد. هات منها :

- درسا لكل متعلم عندما يتحدث إلى معلمه .
- درسا فى أسلوب التربية يستفيد منه أبناؤنا .

# المراجعة العامة

١ فى قول سليمان – عليه السلام – للهدهد – عندما غاب بدون سبب –: «سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين » درس لمعاملة الرئيس لمرؤوسيه. وضحه.

٢ حرية الرأى – احترام اتجاه الغير – المشورة قبل اتخاذ القرار.

دروس نتعلمها من محاورة سليمان للهدهد. حدد المواقف التى تثبت كل واحد منها .

٣ ما الدروس المستفادة من محاورة جعفر بن أبى طالب –رضى الله عنه– للملك النجاشى ؟

٤ بعد أن درست أدب الحوار فى الإسلام .. هل ترى أن المسلمين الآن ملتزمون به ؟ علل لما تقول .

اذكر بعض النماذج التى تراها مخالفة لما درسته من واقع حياتك .

٥ ما الفوائد التى تعود على الأفراد والمجتمعات إذا التزم الجميع بأدب الحوار فى الإسلام ؟



طبعة ٢٠١٨ / ٢٠١٩م

# الخـاتـمـــة

وبعـد؛ فهـذه مختارات مـن « أدب الحوار فى الإسـلام » اسـتقيناها من القرآن الكريـم ، ومن السـنة النبوية المطهـرة ، ومن أقوال العلماء الذيـن رضى الله عنهم ورضوا عنه، وكان مقصدنا الأساسـى من كتابتها : بيان أن شريعة الإسـلام تفتح أبوابها للحوار الحكيم الذى يقوم على المنطق الصحيح وعلى الأدب الرفيع، وعلى الحريـة فى إبداء الـرأى ولكن بعلم نافـع، وبفهم ثاقب ، وبـكلام طيب ، وبقلب سليم من الغرور والتباهى والحسد والأنانية والانقياد للهوى وللمنافع الشخصية ولسوء الظن دون سبب معقول ، أو دليل مقبول...

وقد رأينا فى هذه المباحث أن الحوار بين الناس أمر محتم ، لأن الناس لا يستغنى بعضهم عن بعض فى معاملاتهم اليومية ، وفى شئونهم العامة التى تتعلق بمأكلهم ومشربهم وملبسهم ودوائهم وحقوقهم وواجباتهم ...

كـما رأينا أن الخـلاف بين النـاس فى مقاصدهم وغاياتهـم وأفكارهم أمر محتم – أيضـا – ومـادام هذا الخلاف مـن أجل الوصول إلى الحق والعـدل ، فمرحبا به ومرحى له .

كـما رأينا أن للخلاف أسـبابًا منهـا الواضح الجلى، ومنهـا الباطن الخفى ، وأن شريعـة الإسـلام قد وضعت للحـوار والجدال والنقاش أصولا وأسسـا متى قام عليها كانت ثماره طيبة ، وكانت نتائجه حسنة .

وفق الله الجميع للعمل بآداب الإسلام وأحكامه .

# الفهـــرس


**مقدمة المؤلف** ..... ٥

**الفصل الأول :** اختلاف الناس وأسبابه ..... ٧

**الفصل الثانى :** أسس الحوار فى الإسلام..... ١٣

**الفصل الثالث :** بعض القضايا التى كثر فيها الجدل حديثًا ..... ٤٨

**الفصل الرابع :** حوار بين الخالق وبعض مخلوقاته .....٧٦

**الفصل الخامس :** حوار بين الرسل وأقوامهم .....٨٢

**الفصل السادس :** نماذج من حوار الأخيار مع الأشرار.....٩٩

**الفصل السابع :** نماذج من حوار الأخيار ..... ١١٣

**المراجعة العامة** ..... ١٢٥

**الخاتمة**..... ١٢٦

| رقم الكتاب | مقاس الورق | ورق المتن | ورق الغلاف | ألوان الكتاب | | عدد صفحات الكتاب | عدد الملازم | مقاس الكتاب |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| ٢٦٧ | ١/١٦ ٧٠×١٠٠ سم | ٧٠ جرام | ١٨٠ جرام كوشيه | المتن | الغلاف | ١٣٢ بالغلاف | ٨ ملازم | ١٧×٢٤ سم |
| | | | | ٢ لون | ٤ لون | | | |

رقم الإيداع: ٣٨٤٤ / ٢٠١٨

العام الدراسى: ١٤٣٩ / ١٤٤٠ هـ ٢٠١٨ / ٢٠١٩م

نهضة مصر للنشر



جميع حقوق الطبع والنشر © محفوظة للناشر